42

يوسف الحويك

ذكرياتي مع جبران

باريس ١٩٠٩ - ١٩١٠

Twitter: @abdulllah1994
12.3.2018

حررتها

ادفيك جريديني شيبوب

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

يوسف الحويك

ذكرياتي مع جبران

باريس ١٩٠٩ - ١٩١٠

حررتها

ادفيك جريديني شيبوب

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

Twitter: @abdulllah1994

ذکریاتی مع جبران

Twitter: @abdulllah1994

الطبعة الثانية ١٩٧٩

الحقوق محفوظة للمؤلفة ®

Twitter: @abdulllah1994

مقدّمة

الذكريات بخور السنين الغابرة، ونبشها من سباتها العميق طي الزمن، لكالنار توقـــد في مجامر البخور، فيعبق زكي عرفه في الانوف!

واهمية الذكريات وحقيقة وزنها رهن باصحابها. هي ابداً لصيقة بهم، كظلال جسومهم؛ وكلما علا شأن المرء عزت بين الناس اخباره، فشغفوا بسماعها واقبلوا عليها وعـــلى الاستزادة منها بنهم الجائع لا يعرف الشبع.

ذكريات هـــذا الكتاب رواها شيخ فناننا الاستاذ يوسف سعدالله الحويك. من سنيّه الاربع والسبعين التي وقفها على الفن بين حلتا[1] وروما وباريس وبيروت واخيراً عورا[2]، نقتطف ههنا ذكريات بعض سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠. مسرحنا باريس حيث اجتمع الحويك بصديق صباه جبران

---

(١) قرية ابويه في لبنان

(٢) قريته التي اعتزل الحياة فيها حتى وفاته في ٢١ ت١ سنة ١٩٦٢، وهي بجوار دوما ـ شمالي لبنان.

Twitter: @abdulllah1994

خليل جبران ، فجددا العهود القديمة وترافقا الى المتاحف والمسارح والنزهات الليلية على ضفاف السين . قلما اتى احدهما عملاً إلاّ اطلع رفيقه عليه ، او التمعت في خاطره فكرة الا استشاره في امرها .

لئن ظلت مراحل حياة الحويك ، رغم انتصاراتها وعوالي ذراها ، يكتنفها الغموض ، لأسباب ليس هنا مجال ذكرها ، فحياة جبران تناولتها عشرات الاقلام ، اهمها سيرته لميخائيل نعيمه . غير ان ثمة حقبة من حياة جبران بقيت مشوشة متلفعة بالضباب ، لم يتسنّ لغير الحويك استكشاف اسرارها وتحسس خلجاتها ــ عنيت تينك السنتين اللتين امضياهما معاً ، طالبَيْ فنٍّ في باريس .

كان جبران يعتقد ان للآلهة يداً في تدبير اجتماعهما في باريس ، ويرد الحويك الأمر للصدف فهو كان قد هاجر من لبنان الى روما بايعاز من عمه البطريرك ذي النفوذ العظيم آنذاك ، فراراً من الطغيان العثماني ، وطمعاً بالارتواء من مناهل الفن الايطالي . وبلغه ذات يوم ان جبران موجود في باريس ، قادماً من بوسطن في الولايات المتحدة للاطلاع على الحركة الفنية ولاتقان الرسم ... فهتف للبشرى وقام الى حقائبه يحزمها ويستقل أول قطار مسافر الى عاصمة فرنسا .

Twitter: @abdulllah1994

والطريف ان الصديقين كليهما من مواليد السنة ذاتها — جبران ولد في ٦ كانون الاول والحويك في ٩ آذار سنة ١٨٨٣ . وقد التقيا يافعين عـــلى مقاعد مدرسة الحكمة ، وتوطدت بينهما صداقة حميمة .

نحن معهما منذ نحو نصف قرن ، يسكنان الحي اللاتيني في باريس . وجو الحي اللاتيني في ذلك الزمان وفي كل الازمان ، جو غريب فريد — ملتقى اهل الفن والادب من جميع انحـــاء المعمور ، حيث تصطرع العقائد والأهواء ، وتنشأ وتعصف وتهب عـلى العالم التيارات الفكرية والفنية والأدبية .

في الحي اللاتيني يطيب للآلهة ان تلهو وتعبث . تبذر في الادمغة وفي القلوب ما يروق لها من البذور : الصالح منها والطالح ، فينبت بعضها بين اصابع الموهوبين ، تحفاً فنيـة وبدائع ادبية ويبقى الكثير مدفوناً في صدور الخاملـــين المغمورين وبين جدران غرفهم الفوضوية المتواضعة .

وباريس عروس الدنيا الدائمة النضارة والفتون ، غنية معطاء تهب ابناءها مشتهى قلوبهم الفتية التواقة الى كل جديد وجميل . فيها للراغب ورده النمير ... وفيها لكل انسان منتهى مناه . حتى طالب العزلة واجد فيها ضالته ...

Twitter: @abdulllah1994

وفي باريس بعدُ ، فيضان عارم من الفنون الجميلة والآداب الرفيعة والغيد الملاح ـ من ألطف الجنس اللطيف ـ ملهمات الأدباء والفنانين .

في غمرة هذه الأجواء الزاهية الموّارة والتيارات المتناقضة المتضاربة سأقدم الشابين اللبنانيين :

جبران الحـــالم العينين ، النحيف البنية المتبرم بظروف عيشه القاسية ، تتنازعه عوامـــل القلق ، وتضج في رأسه واحات بكر من الاكتشافات الفكرية والمشاعر الرهيفة . وهو بعيد الطموح يتوق لاصلاح الكون ولاطلاع الناس عـــلى ارائه ونظراته الاصلاحية . وتهمّه الشهرة والاسم العريض ؛ يتمنى ، في سره ، لو يدرُّ عليه أدبه وفنـه شيئاً من المال ليحلّق بجناحين يعشقان الحرية وينفق من كده في سعة ، وكيف شاء .

ويوسف المستقيم الجسم المشرق العافية يحب المرح البريء وعشرة الناس . يتناول الحيـــاة من دروبها السهلة ، سخيُّ الكف ليس للمال عنده قيمة . لا يأبه ان عمر الكون أو خرب ... يبدو في الظاهر اقرب الى اللامبالاة ، لكنه في الواقع يشغل فكره حتى الألم ... ابداً توّاق الى استطلاع النجوم وما وراءها : يدوّن ملاحظاته وانطباعاته الخاصة لنفسه ولا يهمّه في شيء عرفه الناس أو لم يعرفوه .

Twitter: @abdulllah1994

والصديقان على تفاوت طبعيهما، متفقان في الأناقة وكبر النفس؛ يتمرنان معاً على فن الرسم ويدفعان اجرة «الموديل» دورياً للاقتصاد: همهما الأول الوقوف على تطوّر الحركة الفنية، لكنهما لم ينزلقا في تيار الثورة الجنونية التي كانت قد بدأت تجتاح الحي اللاتيني وروافده الدافقة من اوروبا، وانما ظلا معتدلين، في نطاق المنطق الفني، ويجوز ان نقول «كلاسيكيين».

في آخر ١٩١٠ عاد جبران الى اميركا والحويك الى لبنان وحلت الحرب الكونية الأولى، وجال جبران خلالها وبعدها جولاته الموفقة في مجالي التأليف المبدع وبلغ شأواً مرموقاً من المجد الأدبي والفني، وخلق مدرسة تأثر بها وانضم اليها جيش من كتّاب العربية المعاصرين. وبموت جبران سنة ١٩٣١ خسر لبنان والعالمان العربي والغربي علماً من اعلام العصر، وجيء بجثمانه من وراء البحار الى دير مار سركيس في موكب لا افخم ولا أجلّ.

اما الحويك فقد تمكن في اوائل الحرب من مغادرة لبنان الى روما وباريس هرباً من المشنقة. وغاص في شؤون السياسة وشجونها حتى اذنيه مسلطاً لسانه على الانتداب الفرنسي يخيّم على لبنان... وانتظم في صفوف فيصل الأول، يفاوض للقضية في صمت، ورافق مليك العراق الى المتاحف

Twitter: @abdulllah1994

الفنية ونشأت بينهما صداقة قوامها تفاهم وتقدير، ودعاه الملك الى بغداد لاحياء ذكرى شهرزاد في حديقة غناء على ضفاف دجلة ... ولبدء « عصر فيصل الاول » ... لكن ذلك لم يرق لآلهة الاولمبوس ! . وتوفي الملك فيصل السنة ذاتها في « لوسرن » .

كل هذا والحويك دائب على فن النحت . واخيراً ، بعد خمس عشرة سنة ، آب نهائياً الى وطنه فصدمته في الصميم « مأساة الفنون الجميلة » يعانيها الشرق العربي في ادمى وامضّ حالاتها ... وفقد صديقه امين الريحاني ... ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، فآثر الحويك ، وقد اسود قلبه وتكدست عليه الويلات ، اعتزال الناس والانزواء في قريته « عورا » يقضي انضج سني عمره في خدمة الارض ، وهي ابرّ به من اخيه الانسان . وبازميله وانامله يتلهى عن واقعه المرير بتحويل الصخور المشرئبة في حنايا الحديقة الى رؤوس لعذارى احلامه ... لعلها قريبة الشبه برفيقاته الباريسيات اولغا وروزينه وسوسان !

من اغوار تلك العزلة الصوفية المتقشفة تمكنّا بمحبة مخلصة وبكثير من قوة الاقناع ان نستروي صديقنا الفنان الشيخ هذه الذكريات الحنون القريبة الى قلبه ـ ذلك القلب الرحب الذي لم يسبق لأحد من الناس ان قرأ سطوره النابضة حرارة واحساساً .

Twitter: @abdulllah1994

ها أنذا اضع بين يديك ، ايها القارئ ، ذكريات ثمينة عذبة تدفقت سلسالة صافية من ذاكرة الحويك الحادة اليقظة ، عن تلك الهنيهة الخاطفة التي عاشها مع جبران في باريس ـ المدينة الفاتنة ـ وهما بعد ، من عمرهما ، في الربيع النضير...

ادفيك جريديني شيبوب

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

الآنسة أولغا

في ربيع ١٩٠٩ كنت حديث العهد في باريس ، ما ازال منصرفاً الى ترتيب شؤوني وتنظيم معيشتي ، اجلس بين الحين والحين الى جبران ، الذي كان قد سبقني الى هذه المدينة ، اسأله عن هذا الأمر وذاك ، لعلي استفيد من اختباراته وتوجيهه . وفيما نحن ، يوماً ، نتناول طعام الغداء في مطعم صغير قرب حديقة « اللكسمبورغ » انتبهت ان جبران شارد الذهن ملتهياً عني . ولما سألته اين هو ، قال : ما لنا ولمشاغل الحياة الآن يا يوسف ، التفت الى يسارك ، الى تلك الحسناء الجالسة وحدها تأكل على مهل وتطالع في كتاب امامها ... كنت اراقبها ولاحظت انها تختلس النظرة اليك ... ألم تشعر بسهام عينيها العسليتين ؟

والتفتُّ الى حيث اشار جبران ورأيت العينين العسليتين تحدقان بي لترتدا بسرعة الى الصحن ... والى الكتاب ... تأملتها ملياً . كانت مكشوفة الرأس عن شعر مائل الى الشقرة .. وعن وجه مشرق النقاوة ، ويدين بضتين .. وكان على كتفيها شال رمادي مقصَّب الحواشي ...

Twitter: @abdulllah1994

قلت لجبران بعد تفكير ـ ليست هذه الفتاة باريسية ، على ما ارى ... من أي بلد هي يا ترى ؟

رفعت الفتاة رأسها مرة ثانية صوبنا ، فلحظت اننا مشغولون بها فعادت للحال تركز اهتمامها في الكتاب .

قال جبران : يبدو لي انها ليست فتاة عادية . عليها سمة الاشراف ... لعلها طالبة اسكندينافية ؟!

عند هذا ، رجعنا نهتم بترتيب امورنا . وبدا ان جبران لم يكن راضياً عن التحاقه باكاديمية جوليان حيث الجو غوغائي لا يلائم مزاجه .. وحيث نصائح المعلم ج. ب. لورنس لا تفيده بل هي آخر ما يمكنه الافادة منه .. فضلًا عن ان اسم هذا الفنان غير معروف في اميركا ... وقال اخيراً :

ـ أنا يا يوسف افكر جدياً بالشغل في محترفي حراً مستقلًا ، فما قولك لو تعاونا على دفع اجرة « الموديل » ؟

ـ هذا يوافقني كثيراً ، أجبته ، فليس في نيتي التقيّد بأكاديمية خاصة .. يمكننا ان نشتغل قبل الظهر في محلك حيث النور اكثر ملاءمة منه في محلي ، ونتردد بعد الظهر وفي المساء الى المعاهد الفنية الحرة .. وحيث يعجبنا « الموديل » ندفع الرسم ونشتغل على كيفنا .

ـ عال عال .. هذا ترتيب عظيم . وعلينا ان نزور

Twitter: @abdulllah1994

المتاحف الباريسية والمعارض العامـــة والخاصة لكي نطلع على الحركة الفنية ... يبدو لي ان في باريس اليوم شبه ثورة في فن الرسم . ثورة جنونية . كلا ! ليس الفن ألعوبة .. الفن ، كالكتابة ، واسطـة للتعبير عن الشعور ... سأضع قريباً بحثاً في هذا الموضوع .

وحانت مني التفاتة الى جارتي الشقراء ، فاذا هي تنقد الخادمة ثمن الغداء وتهم بالانصراف ... تخطر بقامتها الهيفاء ، وقد ضمت شالها الرمادي والكتاب الى صدرهـــا .. ولدى مرورها امام طاولتنا انحنت وسلمت بلطف ، دون ان تبتسم أو تقول كلمة ..

وراقت لنا التحية فعلق عليها جبران : ــ اما وقد حصل التعارف ولو دون كلام ، فيهمنا ان نتحقق لمن كان السلام يا ترى ، لي أو لك ؟

ــ على كل حال ، لن نتبارز لأجله !

وعلى هامش هذا التعارف « النظري » راح جبران يقارن ويشبّه : كيف ان الكواكب في الفضاء الواسع تتقارب ثم تتباعد .. سألته مازحاً : ــ واذا حصل اصطدام ؟ تبسّم جبران وقال : ــ هـذا موضوع شيّق لقصة عاطفية ، طالما عنّت لي كتابتها ، وانا الآن ابحث عن ابطالي ... يعجبني مثلاً نوع بلزاك !

Twitter: @abdulllah1994

وجاءت الخادمة تحمل صحن الفواكه فسألها جبران : ـ افيدينا يا جورجيت بما تعرفينه عن صاحبة الشال الرمادي ؟

ـ هي مدموازيل اولغا . روسية على ما اظن . تدرس في السوربون . لا يبرح الكتاب يدها . مسكينة .. لا تعاشر احداً .

واستأنف جبران حديثه عن بلزاك كيف كان يطوف في الليل شوارع باريس القديمة يلتقط التأثيرات ليعود الى غرفته قبيل الفجر : يرتدي الزي الشرقي ويرخي الستائر الدمقسية على النوافذ والأبواب ، ويعكف على الكتابة ... وشرب القهوة ـ على هذا الوضع مثّله رودان ، لكن التمثال لم يحظ بكامل الرضى الا بعد نصف قرن غداة رفع على قاعدة عند ملتقى بولفار راسپاي ومونپارناس ، فكان من اروع الآثار في باريس !

عدنا في الغد الى المطعم نفسه وجلسنا حيث جلسنا بالأمس نأكل ونرتب امورنا ونتباحث في شؤون الأدب والفن . وأقبلت الآنسة اولغا تتهادى بالقامة المستقيمة الفارعة ، جامعة الشال الرمادي والكتاب معاً ، الى صدرها ، باحثة بعينيها عن طاولة حرة تلجأ اليها .

من التقاليد الشائعة في مطاعم الحي اللاتيني في ذلك العهد عندما تكتظ بالزبائن ، ان يشارك بعضهم البعض الجلوس على الموائد دون كلفة .

Twitter: @abdulllah1994

ـ أدعُها يا يوسف !

ـ ادعها أنت يا جبران !

واذ نحن في غمرة التردُّد ، بدا ان الآنسة اولغا كانت اشجع منا ، لأنها تقدمت نحونا بتؤدة وسألت في أدب جم :

ـ هل تسمحون لي ايها السادة بالجلوس معكم ، سوف لا اثقل عليكم ؟

وفي لمح البصر افسحنا لها المكان الرحب ! وبدأ جبران يكلمها بالانكليزية .. كانت تجيدها .. لكنها ما لبثت ان التفتت نحوي سائلة ان كنت أنا ايضاً احسن الانكليزية فأجبت بالنفي . من اللائق اذن ، قالت ، ان نتكلم جميعنا لغة البلاد ـ اللغة الفرنسية . وسألتنا عن لغتنا ، قلنا : العربية ! .. قالت : حبذا لو تمكنت من دراستها . ان تعلم اللغات الشرقية هو ضمن دائرة تخصُّصي ..

جاءت الخادمة تحمل صحن المقبلات وتستعلم من الآنسة اولغا عما تريد من الوان الطعـــام فنظرت الى الصحون امامنا واجابت : مثل هذه الألوان ـ « ربزّوند » ومخنة ارنب .. وسلطة روسية !

وراحت تشرح لها كيفية تجهيز السلطة الروسية لكن جورجيت طمأنتها الى قدرتها على ذلك وأوصتها همساً قبل ان تنصرف : اهتمي الآن بنفسك ، لا تدعي « اثنين »

Twitter: @abdulllah1994

يتغلبان عليك .. انت لست « مسكينة » بعد .. واعلمي ان اثنين أقل خطراً من واحد ! هكذا علّم الاختبار بنات باريس .. كوني على ثقة !

بدأنا نتوسع في التعارف ونأكل على مهل : أنا الآنسة اولغا ج. من مدينة تومسك ـ سيبيريا ـ سفرة ١٥ يوماً بالقطار الى باريس . جاءت تتابع دروسها العالية في علم اصول الكلام والاداب الفرنسية والموسيقى ، لكي تتمكن بعدئذ من ادارة هذه الفروع في جامعة تومسك حيث يشغل والدها وظيفة المدير .

وأنا جبران من لبنان . هاجر مع والدته واخواته واخيه الى الولايات المتحدة . وقد ساعدته « العناية الالهية » ليجيء الى باريس ليتقن فن التصوير ويتمرن على الكتابة .. وهو يجد لذة كبرى في الكتابة والرسم .. وعنده اشياء يقولها للناس .

قال ذلك بالانكليزية فارتسمت في عيني الآنسة اولغا علامة استفهام .. وحوّلت نظرها نحوي ..

ـ أنا ايضاً ولدت في قرية صغيرة ضائعة في جبال لبنان وجئت الى باريس عن طريق روما لكي اتمرن ... على ما يروق لي ... فن التصوير والنحت .. علم الفلك .. والحياة ...

Twitter: @abdulllah1994

هنا قاطعتني الآنسة اولغا بلهجة جدية : هذا شيء مبهم يا سيدي . من الضروري ان يكون للانسان غاية واضحة في الحياة ، يسعى وراءها بنشاط .. أرني كفّك !

« بلعتُ » الملاحظة ومددت لها كفي طائعاً ، فصارت تتابع خطوطها بامعان دون ان تقول كلمة ، ثم تحوّلت الى كف جبران تفعل الشيء نفسه ..

وحلا لي الادعاء انني مثلها احسن قراءة الكف والتنجيم فامسكت يدها الطرية اتفحص عروقها من الخارج . وكنت من زمن بعيد قد لاحظت كيف تختلف العروق وتتباين في اكفّ الناس واستنتجت بعض العلامات التي لها صلة بالطبائع والاخلاق ، وكم كانت دهشتي عظيمة ! فللمرة الاولى أجد كفاً تشبه كفي من حيث تعرّج خطوطها .. فما المانع ان « ابرّج » للفتاة ناسباً اليها بعض طباعي ؟؟!

ـ يتراءى لكِ ايتها الآنسة انك تفهمين كل شيء ، وتشعرين في اعماق قلبك انك لا تفهمين شيئاً واضحاً . وهذا الشك يزيدك رغبة في الاطلاع والتفهم .. يخدمكِ الحظ لكنكِ لا تحسنين تحيُّن الفرص والاستفادة منها ..

وكانت الآنسة اولغا تصغي بانتباه ثم قالت :

ـ أنا لا اعتقد بهذه السخافات ، لكن ما تقوله لا يخلو من

Twitter: @abdulllah1994

الصحة ... لعلها غريزة الشرقي ..

قالت هذا وأدارت وجهها الى الساعة وراء مكتب المديرة ، وكنا قد انتهينا من تناول الطعام ، وقالت : أنا على موعد الى الغد ... ونهضت مودعة ومشت بخفة ورشاقة نحو الباب .

ـ قامة جميلة يا جبران .. تمجد خالقها !

ـ هي ولا شك شريفة . أما رأيت كيف يلوح النبل في كل تكاوينها وحركاتها ؟

ـ يا لها من « موديل » ... لو رضيت بالجلوس امامنا !

وبينما نحن نشرب القهوة وجبران يدخن السيكارة ـ وكم كان يتعشق القهوة والسيكارة ـ صار يحلل انواع النساء . وكان تحت تأثيرات سيئة عن المرأة الشرقية ولذا كان صارماً في الحكم عليها .. وجاء على ذكر « وردة الهاني » التي هجرت زوجها ..

وانتقل من هـــذا البحث الى تحليل الوضع الاجتماعي فقال : اكثر الناس يا يوسف يعيشون في لجة من الكذب والخيانة والصغارة .. يدعون انهم اعداء الشرائع والتقاليد .. اما أنا فعدو النفاق والرياء ! سأقول لهم ذلك ، ليخجلوا !

ـ واذا هم لم يطالعوا ما تكتبه فيخجلون ، أفـــلا يذهب تعبك هدراً .. وتبقى الحال كما هي ؟ ورددت قولاً

Twitter: @abdulllah1994

فولتير : « ان معظم الناس سيظلون كذابين ، منافقين ، جبناء ، ناكري الجميل ، لصوصاً ، ضعفاء ، قليلي العقـــل ، ملائشين ، مشعوذين ، جشعين ، سكيرين ، بخلاء ، طماعين ، سفاكي دماء ، متهتكين ، متعصبين ، جبناء .. »

خرجنا ، بعد هذه « الفشفشة » من المطعم وسرنا نتنزه في الحديقة الجميلة ، وتمهلنا هنيهة الى جانب البركة حيث يسيّر الصغار اساطيل الكرتون والورق .. فقال جبران : ليتني واحد منهم .. اتذكر يا يوسف طائرات الورق في سماء بيروت ، على مرتفعات الأشرفية ؟ لقد حاولت مرة ان اطلق طيارة في سماء بوسطن فمنعني البوليس !

ـ وهذه تماثيل ملكات فرنسا .. كل واحدة بزي .. كأنهن عارضات ازياء ..

ـ أو ترى معي ان هذه الملكة تشبه ... الآنسة اولغا ؟

ـ بل تقصد ... ان الآنسة اولغا تشبه تمثال هذه الملكة !!

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

المكتبة الفنيّة

لدى انتهائنا الى شارع « داسّاز » اجتذب انتباهي على الحنوة ، قفير نحل عارمة ، فأوقفت جبران برهة ورحنا نراقب النحلات النشيطات رائحات غائدات مزوّدات بالمواد الأولية للشمع والعسل ، في حين يتلكأ الذكور ببلادة على المدخل يعيقونهن عن العمل ..

قال جبران مازحاً : ارأيت يا يوسف ما اثقل دم هؤلاء الذكور ؟ لا لوم على الأناث ان هنّ هجرنهم !

ـ هذا موضوع شيّق لقصة يا جبران ، عالجه ... ولا تنس ان تشرح انه اذا كانت الحشرات طوع غريزتها .. فكيف بالانسان !..

واجاب جبران ضاحكاً : وهذا ايضاً من ڤولتير ! أراك تكثر الاستشهاد بآرائه . هل بينكما قرابة ؟

ـ بعيدة على كل حال .. تعجبني خفة ظله وروح الفكاهة في كتاباته .. وذيّاك اللسان « المسنون » الذي لم يسلم احد

Twitter: @abdulllah1994

من شره .. لكأنه مسكون شياطـــين !!.. والشيء الأهم يا جبران هو انه هزّ أعصاب مواطنيه ومعاصريه . نفخ فيهم بوقـــه وايقظهم الى واقعهم المرير مشيراً الى "مواطن الداء .. آه كم تبدو باهتة جرداء في الذهن صور الشخصيات الشرقية المعاصرة لفولتير .. حتى التي جـــاءت بعده : صَف حكي .. تقريظ ونظم .. وغزل !؟

مرّت هنيهة قبل ان يتكلم جبران . كان غارقاً في تأملاته يستوعب ما سمع مني واخيراً قال :

ـ ارض الشرق بور قاحلة ... والجو ثقيـل جامد ... ان لم اقل « فاسداً » ... أنا يا يوسف عازم على ان اهزّ اعصاب الاميركان وانفخ في اوساطهم بوقي .. بلادهم خصبة والدولارات بحر ، رغم ان اغنياءهم ـ ككل الأغنياء ـ عميان أنانيون .. لعن الله المال كيف يقف بالمرصاد بين المرء وامانيه ..

بهذه العبارة الاخيرة طالما انهى جبران كلامه معي ، متذمراً من ظروفـــه وضيق افقه ، توّاقاً الى التحليق والانطلاق والبوح بما يصطرع في صدره وعقله .. وليس في جناحيه بعد ، الا الزغب الطري الذي لا يقوى عـلى حمل الجسد الضخم الى الاعالي ..

Twitter: @abdulllah1994

. .فنا على شارع « ڤاڤن » ، وهناك بين حديقة اللكسمبورغ .. اذار مونپارناس تقوم بعض المعاهد الفنية الحرة للتصوير و.. . . وكانت تتوسطها يومذاك مكتبة فنية صغيرة وفي ..ا دائماً تشكيلة لطيفة من الكتب والمجلات وبعض ا..ات من النوع التكعيبي « الكوبيسم » . امام هذه الواجهة .. . وجبران نتأمل المعروضات ، دون ان يكون لنا نية الد..ول ، لا سيما ان الكتب غالية ! وفيما نحن في غمرة الملام ، اذا برأس فتاة سمراء يطل علينا من خلف الزجاج، .. بالبسمة النيِّرة والعينين السوداوين « يغزلان غزلاً » ، الى حد تعبير جبران ، وتفتح الباب لنا : تفضلوا ايها ال..ادة ، في الداخل كتب ومجلات كثيرة ، ويمكنكم ان ..رجوا عن كثب وتطالعوا ، دون الاضطرار الى الشراء.. و..دنا كذلك تخفيضات عشرة بالمئة ..

دخلنا بالطبع ! فاذا مع السمراء فتاة اصغر منها سناً ، ..الة الى الشقرة ذات طلة فاتنة وشعر متهدل على كتفيها في دلٍّ انثوي لطيف ... وتقدمت الشقراء نحونا مستطلعة ..ألنا بلهجة طفولية : « هل انتم اسبان أو طليان » ؟

فأجاب جبران باللهجة نفسها مشيراً بيده الى بعيد : « نحن من هناك ... من لبنان . بالقرب من اورشليم ... ومن السماء ! »

هتفت الفتاتان معاً لدى سماعهما جواب جبران وهلل

Twitter: @abdulllah1994

وجه الصغرى وهي تقول : « آه اورشليم ! نحن يهوديات من رومانيا .. جدّنا في اورشليم ، هاجر اليها منذ سنوات، لكي يدفن ، بعد موته ، في الارض المقدسة ، ويصعد الى السماء ، الى حضن أبينا ابراهيم ! » .

وبدت في ضحكتها رنة هزء سافرة حبّبتها اليّ . فقلت لها مشتركاً معها في الضحك : بعد عمر طويل ... اطول من عمر متوشالح !.

وتم التعارف .. الكبيرة سوسان فوق الخامسة والعشرين ـ من عمرنا ـ والصغـــيرة ليّا في نحو الخامسة عشر .. ولما عرفت سوسان اننا نُعنى بفن التصوير سألتنا : أي نوع ؟

ـ لا نزال شغوفين بالنوع الكلاسيكي ..

فقالت على الفور :

ـ لم يعد عليه طلب .

وانبرت تشير الى رسوم ولوحات هنا وهناك ، البعض منها « كوبيسمي » وغيرها لم اكن ادري ما اسمه ـ يبدو فيها جسم المرأة « ملولقاً » مشوّهاً كما لو كان ظاهراً في مرآة مقعّرة أو نافرة بقصد « التمسخر » .

دللت باصبعي على واحدة كثيرة « التلولق » وسألت ليّا مازحاً وقد توسمت فيها روح النكتة : هل هذا رسمك ، ايتها الآنسة ؟ وهل هذه تكاوين جسمك تحت الثياب ؟!

Twitter: @abdulllah1994

.. ضحكنا جميعاً الا جبران فقد عبق وجهه بالدم – دم الغضب – وتناول هو الكلام انما بلهجة اخرى مشيراً بعصاه الى الرسوم :

هل نسي هؤلاء الفنانون المجانـــين امهاتهم واخواتهم وحبيباتهم ؟ أو انهم فقدوا كل شعور ؟ وكل وزن ؟ كي يشوهوا، هكذا، جسم المرأة ... المقدس الالهي ؟

كان يتكلم بجدة، وليّا مشدوهة لا تدري ماذا تقول .. فقاطعته سوسان محاولة ان تخفف من غيظه ، وتشرح له الناحية الاقتصادية : « هـذا النوع عليه طلب » ... وكمل جبران عظته كأنه لم يقتنع بهذا التعليل :

– من العصر الحجري الى هـــذا الزمان والفنان يتغنى بجسم المرأة – بالجمال – بأي جمال . فهل هذه آخر انشودة ؟ أليس الفن للتجارة ايتها الآنسة !

ودخل في هذه اللحظة شاب طويل القامة وسيم الطلعة عرّفته سوسان بصاحب المكتبة ، نسيب لها . ومد الرجل يده مسلماً ومعرفاً نفسه :

– كالمي

– جبران ..

Twitter: @abdulllah1994

وكملت الصغيرة ليّا مقلدة بيدها حركة جبران : « من هناك ... قرب اورشليم » .

لم نضيع الوقت . دخلنـــا حالاً في الحديث عن الفن والرسم . ولما ظهر لكالمي اننا ما نزال نؤثر النوع الكلاسيكي، كرر جملة سوسان : « لم يعد عليه طلب ! »

مال جبران عنا يستعرض الكتب بتأمل وصمت ، وانتحى كالمي بي يسألني اذا كان بالامكان مشاهدة اشغالنا الفنية ... فأخبرته ان محلي على بعد خمس دقائق على الاقدام ، وامامنا متسع من الوقت . والمعهد الفني لا يفتح قبل الساعة الثالثة.

وقال لي جبران بالعربية :

ـ رافقه وحدك !. سأنتظرك هنا . اطالـــع واتفرج ريثما تعود .

مررت مع كالمي في الطريق التي تقسم مقبرة مونپارناس الى قسمين ، ومشينا بين الأضرحة الفخمة ووقفنا امام ضريح الشاعر « بودلير » نتأمل تمثاله ملقى على ظهره وقـد ابتدأ لون الحجر يبهت من المطر والشمس عـبر سنين وسنين !. وأنشد كالمي : « عندمـا سترقدين يا جميلتي العابسة في عمق قبر من المرمر الأسود .. » ثم تابع سيره دون ان يكمل النشيد : ليس هذا أوان الشعر ...

Twitter: @abdulllah1994

ملنا الى الشمال في شارع « فروادفو » وفتحت باب محلي المطل على الشارع . تقدم كالمي قائلاً :

هذا محترف للنحت اكثر منه للتصوير ...

ثم أجال نظره في المكان ، يتمهل هنيهة أمام كل لوحة ، ومعظمها غير مكمّل .. بينها صورة امرأة جالسة وقد سُك في صدرها سبع حربات ، ولاحظتُ انه قلب شفته السفلى ، علامة الاستخفاف ، أو عدم الرضى ، فشعرت بالعرق البارد يندي جبيني ...

ـ ماذا عساها تمثل هذه الصورة ؟ اجبته متكلفاً الهدوء :

ـ صورة العذراء مريم أم السبعة آلام . طلبتهـــا مني الأخت تريز احدى راهبات المحبة .. أنا لي شقيقات راهبات..

وحدق كالمي في عيني تحديقاً ازعجني ، ثم أشـــار الى صورة رجل راكع يصلي بخشوع .. وقلب شفته من جديد وسألني :

ـ وهذه الصورة ؟

ـ ... المسيح في بستان الزيتون ..

ـ وهي أيضاً لراهبات المحبة ؟! هذا يا صاحبي ، يبعدنا كثيراً عن الموضوع العملي .. اذا كان كل مبتغاك خلاص

Twitter: @abdulllah1994

نفسك ، ويهمك العطف على الراهبات ، فهذه مسألة تخصك وحدك ولا دخل لي فيها . اما اذا كنت تريد ربح الفلوس، فليست هذه هي الطريق ، صدقني ! ولا هذا هو النوع ! اسمع مني جرّب الكوبيسم وأنا اتكفل ببيع صورك اذا نجحت . المسألة حسابية : ١ + ١ = ٢ . عشرة بالمئة من ثمن البيع لي ...

اطلعت جبران على كل ذلك وقلت له اني اخذت كلام كالمي بعين الأهمية وفي عزمي ان اجرب ...

ـ هذه الطريقة وعرة وشائكة يا يوسف ... كم مرة قلت لك ان الفن ليس ألعوبة ولا تجارة ... هو واسطة للتعبير عن الشعور ... هو نسمة الهية .. هو .. لا اجد كلمة تعبّر عما أريد ..

وكأنه ، بعد هذا التسامي الكلي في الاحساس ، عاد فهبط الى الأرض ، وكمل حديثه : في رأيي ان تتمرّن على النحت .. في الشرق العربي لا يوجد نحات .. ستكون أول نحّات .. واذا شئت الذهاب معي الى الولايات المتحدة فهناك المجال واسع ...

لم يكن جبران ، ولم أكن أنا ، نعلم حينذاك ما معنى مأساة الفنون الجميلة في الجو الشرقي ، قبل الحرب الكبرى ... وبعدها .

Twitter: @abdulllah1994

مقهى الدوم

لا بد للمتحدث عن الحياة الاجتماعية في الحي اللاتيني ابان ذلك العهد ، أي قبل الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات ، من ان يأتي على ذكر مقهى « الدوم » القائم في زاوية بين شارعَي راسپاي ومونپارناس ، والذي كان يتمتع بشعبية واسعة جعلت اهل ذلك الحي يؤثرونه على غيره من المقاهي ، وذلك بفضل الطابع الفريد الذي تميّز به . فقد كان ملتقى الأدباء والفنانين والمفكرين من كل لون ، يجتمع حول موائده المستطيلة خليط غريب من الاجناس البشرية ، يناقشون ويجادلون دون هوادة في شتى المبادئ والفلسفات ، وفي مختلف انواع الأداب والفنون وفي الجديد الجديد من احداث الكون ... ولكي يكتمل العرض كان يتخطر امام الحاضرين ، بين الحين والحين ، مغربي بالطربوش الأحمر ذي الشرابة الكبيرة ، يتدلى على كتفيه معروضات للبيع : قِطع سجاد ، أغطية طاولات ، زنانير ؛ ربطات عنق وما شاكل ، وفي جيوبه أشياء محرّمة كان يشير اليها بغمزة مبطنة ... فيبيع من بضاعته أو لا يبيع ، ويمر بنا فكأنه من عالم غريب يعيش على هامش التمدن ...

Twitter: @abdulllah1994

كان الجلوس في مقهى « الدوم » فناً قائم بذاته ، لم يعط لكل انسان ان يهتدي اليه ويتقنه ، فيتمتع بمحاسنه ويحتمل مساوئه . وسبحان من خلق الدنيا اذواقاً ! فجبران مثلاً كان يأنف من الجلوس فيه ، وكم كان يقول لي : « هـذا تضييـع وقت يا يوسف ! » كان يفضل نسق المجتمع الاميركي والتحدث بهدوء « رأساً الى رأس » ويروق له السير عـــلى ضفاف السين أو في شوارع باريس القديمـــة شأنه في ذلك شأن « صديقه » بلزاك ..

وكذلك لم يكن جبران يكثر من السهر ، لا في علب الليل ولا في سواهـا . كان ضعيف البنية يؤثر الذهاب الباكر الى الفراش ، والانصراف الى التفكير ... والكتابة.

ومثله كانت الآنسة اولغا . حاولتُ مرة واحدة اقناعها بالمجيء معي الى مقهى « الدوم » على سبيل التجربة فتضايقت وضاقت انفاسها من الجو الصاخب المثقل بالدخان ولم تُعِد التجربة .. هي ايضاً لم تكن شغوفة بالجلوس بين الجماهير ..

اما نحن ــ زمرتنا المؤلفة مني أنا وسوسان وليّا وكالمي والدكتور كسپار والمثال كريستسكو وغيرهم ، فكنا قد اتقنا فن الجلوس في « الدوم » وبرعنا فيه ، اذا جاء احدنا باكراً حجز الطاولة ودفع رعبوناً ، لكي يكون الباقون ، متى جاؤوا واحداً بعد الآخر ، على ثقة بانهم واجدون

Twitter: @abdulllah1994

عملات .. وقد كنت بعد التمرن ساعتين على الرسم في معهد « كولاروسّي » ، اتطلّع بشوق الى هذه السهرات الممتعة ..

كانت تدير معهد « كولاروسّي » سيدة ايطالية اسمهـــا كاترينا . عملت في صباها « موديل » وعندما احيلت على التقاعد بعد ان انجبت عدة « موديلات » عُهد اليها بادارة المعهد .

اذكر كم كانت السيدة كاترينا واسعة الاطلاع في كل ما له صلة بمهنتها ، ثم انه لم يكن يفوتها ثمة سرٌ مما يدور حولها ، فقد علمتها الأيام « الفراسة » ، تستطلع ، من مجرد النظر الى أعين وملامح الطلاب والطالبات ، كل ما يجول في خواطرهم من نوايا وافكار ... وهكذا كثيراً ما كانت تستبق الحوادث !!

أول مرة سمعتها تتكلم الفرنسية بلكنة خاصة لم اشك لحظة في انها ايطالية ، فكلمتها بلغتهـا ... وهكذا ارتفعت الكلفة وتسهلت امامي جميع السبل ...

كان في المعهـد اربع قاعات للرسم . في احداها يجلس « الموديل » ثلاثة ارباع الساعة ويرتاح ربع ساعـــة ، وفي الثانية يغير الجلسة كل ربع ساعـة ... كنت ادفع رسم الدرس أو لا ادفعه ، واشتغل متى شئت وانّى شئت فلا من يعترضني ... ولما اطمأنت السيدة كاترينا اليّ منحتني سلطة اختيار جلسة الموديل والملاحظة والسهر عـــلى سير النظام

Twitter: @abdulllah1994

داخل القاعة ، إنما بلطف كيلا ازعج الزملاء ، فكنت حيناً اتمادى في استعمال صلاحياتي ، بتسهيل العمل للآنسات دون الشبان ، فاؤثرهن بالمحلات المفضلة والموافقة من حيث المسافة وتسلط النور ، واتحدى نظرات الشبان وغضبهم – ألم نتفق أنا وجبران على انهم ثقيلو الدم !

كانت اوقات الدوام في المعهد على ثلاث فترات تتراوح بين التاسعة صباحاً والتاسعة مساء ، ولقد كان جبران يفضل الفترة الاخيرة رغم انه لم يكن ليكثر من التردد الى معهد كولاروسي .

كان من عادتي ، كما ذكرت ، بعد الانتهاء من التمرّن على الرسم ان اعرّج على مقهى الدوم حيث اجد الصحاب في انتظاري ، فاوزّع عليهم ما قد يعجبهم من رسوم بين يديّ ... ثم لا ألبث ان اغرق واياهم في دوّامة من الاراء العلمية والفنيـــة والسياسية والتجارية – تدور وتدور ولا تنتهي : – « كيف يمكن استخراج السكر من الفحم ... كيف تمكن كوكلين وڤان غوغ من تغيير مجرى الفن ... كيف حلّق الطيار بلازيو فوق المانش !... وكيف ان انكلترا لم تعد جزيرة !.. وكيف ان الشعب الالماني نشيط لكن الامبراطور غليوم مخيف ... وكيف ان الفرنسيين يرون انكساراتهم كما لو كانت انتصارات !!! وكنت عندما اتعب من كل ذلك اميـــل برأسي نحو الآنسة ليا

Twitter: @abdulllah1994

وأداعب شعرها الجميل واسألها : « لمن هـــذا الشعر ؟ »
فتجيب : « لليّا » — فاصلح لها الجواب : — « بـــل قولي
لها « ليّا » فتتكلمي العربية !! ثم تبدأ بيني وبينها مبادلة
النوادر والقصص الظريفة ... كان يلذ لها ان تروي قصصاً
مضحكة عن اليهود ، فاهمس باذنها احياناً : « واذا كان
ابراهيم غير صادق في وعوده ؟ » فتجيب ضاحكة : « اذا
كان ابراهيم غير صادق « يتخربط » كل شيء » .. وتردف
بعد امعان قصـــير : « والاصح انه لم يكن صادقاً ...
ما قولك ؟!.. »

وكانت تستدرجني بخبث بريء وتستزيدني من قصص
الكهّان : « دخيلك يا صديقي ... بعد قصة صغـــيرة !! »
وعندما تضيق ذرعاً بتلكؤي وتمهّلي تعمد الى تسهيل مهمتي
قائلة : « كان يوجد كاهن محترم .. » وكنت قـــد تعلمت
صنعة شهرزاد حتى الاتقان وتمرنت على الارتجال فاكمل
القصة على اهون سبيل ونضحك ونقهقه معاً وتتعالى جلبتنا
حتى يحسدنا سائر الرفاق ...

... هذا مع ليا ، أما اختها الكبرى سوسان فكانت
كلما تسنّى لها محادثتي عـلى حدة ، همست في أذني آراءها
الخصوصية عن طبيعة الحب وفلسفته . كم تساءلتْ بحيرة :
« لا أفهم لماذا يعلق الناس كل هذه الأهمية على الحب ...
جعلوا منـــه إلهاً . بنوا له الهياكل ، غنوا ارق الشعر ،

Twitter: @abdulllah1994

تحاربوا .. حتى وانتحروا !.. وخلصوا في الحكم على الحب على انه « درهم عسل على قنطار حطب ! » عجيب امر هذا التفلسف ! فالحب في حقيقته من ابسط الأمور ... انه كشربة ماء .. ألا توافقني في الرأي ؟ »

وكنت عندما أُعرض عن آرائها الحبية ، لا تلبث ان تغير الحديث بمهارة فائقة . فتنتقل بسرعة الى عرض جديد من نوعه : سفرة معها الى ... الصين ! شهر ذهاب وشهر اياب وشهر في بكين وغيرها من المدن حيث نتفاهم مع المحلات التجارية المختصة بالأشغال اليدوية ... في باريس عليها طلب .. ويمكننا ان ننشيء بعد ذلك محلاً هنا في باريس .. واذا تم النصيب بين ليا وجبران ، نتركهما في المحل ونسافر نحن متنقلين في ارض الله الواسعة . أنا احب السفر وأنت تحبه ايضاً .. أليس كذلك ؟ سنزور الهند واليابان ونعقد الصفقات التجارية ... فلا يمضي وقت طويل حتى يصبح المحل من اكبر محلات باريس والفلوس بين أيدينا قناطير .. صدقني يا صديقي الفنون والآداب لا تطعم خبزاً !

على هذا النحو كانت سوسان تنتقل في احاديثها الخاصة معي بحماس واغراء . وتناهى الى سمع كلمي مرة جزء من خططها التجارية فهزّ رأسه واعترضها ضاحكاً بهزء : لا تتعبي نفسك يا سوسان آخر شيء يهتم له صديقنا جوزيف هو التجارة ... ألا ترين كيف انه لا يعرف يشتري زوج

Twitter: @abdulllah1994

..ات ؟ ويرتبك ، بل يضيع في حسبة خمسة فرنكات ؟
.. ل اليّ انه يهرب من الفلوس كأن بينهما عداوة ! فهو
بدلاً من الاهتمام باشغاله الفنية فتدر عليه بالمال — وهذا ممكن
ا.. سمع مني — يذهب ويتلهى بدروس عقيمة لا طائل تحتها:
تاريخ الانسانية ، تطوّر التمدن ، علم الفلك ، فلسفة الأديان ،
وهل في الكون أشياء أقل فائدة مادية من هذه الدروس؟

وحين كنا نتناول ، أنا وجبران ، هذا الموضوع كان جبران يحتج بنرفزة قائلًا : « الى الصين ، ومع صبية يهودية سمراء وعيناها تغزلان غزلاً ؟ والحب عندها كشربة ماء ؟ هذا لعمري هو الجنون بعينه يا يوسف ! امنعك بكل قواي حتى عن المزاح بهذا المعنى ! » — يقول هذا رافعاً اصبعه في وجهي مهدداً منذراً .. بينما اكمل أنا : « واذا تمّ النصيب مع ليا ؟ » فيقاطعني جبران ضاحكاً ضحكته العصبية الصفراء وهو يهزّ رأسه ذات اليمين وذات اليسار : « بعد ناقصني ليا ! » ثم يردف بلهجته الجدية : « ان الأمر على غاية من الأهمية يا يوسف وعجباً لك كيف تهدر وقتك على هذا النحو ! علينا ان نجتهد لنفهم مجاري الحركة الفنية في باريس .. هذه الثورة الجنونية القائمة على قدم وساق ضد الفن والجمال .. هذه المعركة العنيفة بين تقليد أو محاكاة الطبيعة والتنكر لها . شاهدتُ هذا الصباح بعض صوَر .. حيرتني ، فرحت اتساءل : الى أي حد يا ترى يوافق النقل عن الطبيعة أو

Twitter: @abdulllah1994

محاكاتها حسب طريقة ليوناردو وميكال انجلو ، أو التنكر للطبيعة حسب طريقة هؤلاء ... المجانين . اذا اهملنا الوزن والقياس والملاحظة الدقيقة ؛ اذا ضحينا بابرز مظاهر الجمال من خطوط واشكال ، حسب مـــا تتراءى للعين السليمة ، وعرّينا الفن من أهم عوامله .. هذه يا يوسف هي المسائل التي يجب علينا ان نجـد لها الأجوبة ، لا مسائل سوسان وليا ... والسفر الى الصين ! »

بعد هذه العظة كنت لا البث ان انتقل الى جو جبران وانسجم واياه في التفكير الجدي العميق محاولين بجهـــد تحليل مظاهر التطور ، بل الثورة الفنية التي كانت بدأت تجتاح باريس ، قاسمة جيش الفنانين إلى صفوف ، وتاركة في عقول المحافظين منهم علامة استفهام كبيرة .

Twitter: @abdulllah1994

في متحف اللوفر مع جبران

... دخول متحف « اللوفر » مجاني كل يوم أحد ، فكان من الطبيعي ان تخصّص ايام الأحاد عنـــد الفنانين الناشئين وطـــلاب الفنون ، ولا سيما المفلسين منهم ، لزيارة اللوفر أغنى متاحف باريس والعالم .. كنت أنا وجبران نوزع باقي ايامنا ، في كثير من التشويش والفوضى البوهيمية ، على شتى الوان النشاطات والاهتمامات العامـــة والخاصة وربما اختلفنا على امرٍ ما ، فاخذ كل سبيله لا آبهاً ولا محاسباً . لكن ثمة شيء لم نختلف عليه مرة واحدة هو اللقاء في اللوفر كل يوم أحد . كنا نؤمه متفقين ، في مطلق شوق ورغبة ، كما يؤمُّ الحُجّاج المتعبدون الديار المقدسة ، فنطوف الساعات الطوال في ارجائه الفساح الملأى بالروائع الخالدات . هنا آثار للتمدن القديم الذي ترعرع وازدهر في بلاد مصر وشومر واشور وايران واليونان والرومان ، وهناك اثار « النهضة » حتى مطلع القرن العشرين ...

كنا ذات يوم في ذروة هوَسنا واهتمامنا ، نقف برهة بين الاثار المصرية ، نبدي اعجابنا بتمثال « الكاتب » جالساً

Twitter: @abdulllah1994

والقلم في يده .. ثم ننتقل الى مجموعة من الآثار « اليونانية » فنشير بدهشة الى تمثال آلهة الانتصار « سمورَاس » وتمثال « الزهرة » المحبوبة « ده ميلو » ، وبين صور النهضة نقف هنيهة مأخوذين بصورة « موناليزا جوكوندا » وغيرها وغيرها من التماثيل واللوحات .. ومرةً ، بعد ما انتشينا حتى السكر من النظر الى بدائع الفنون وروائعها ، وكان كلانا يتمنّى لو لزمها ليل نهار ، لا سائلاً عن مشتهى آخر ، التفتُ الى جبران وقد التمعت عيناي بحماسة شديدة ، حتى باتتا مبتلتين بالدمع ، وقلت له : « هل نرمي في مستودع النفايات بكل هـــذا التراث الفني العظيم ... لأن بعض المشعوذين قصّروا عن صعود القمم الفنية فآثروا تغيير طريقهم ، لعلهم يكتشفون شيئاً جديـداً .. فكانت النتيجة ان جاؤونا باشغال ممسوخة غريبة تضحك الثكالى ! »

فانتفض جبران وقـــد اعجبه اندفاعي فجأة الى صلب موضوعنا الرئيسي الذي كنا كثيراً ما نحوّم حوله دون التجرُّؤ على اقتحامه ؛ وضحك بصوت عال سمعه من حولنا في الباحة ، ثم قال : « نبضك قوي اليوم يا يوسف ... انك اعجبتني ! لكن مع الأسف حجتك ليست قوية . ألا تظن انه لا بد ان يكون وراء الضجة القائمة « شيء » ؟ لا بد لنا اولاً من ان نحاول تفهم هذا « الشيء » . ثم يكون لنا ملء الحرية في اتباع الاسلوب الذي نرتاح اليـــه والذي يوافق

Twitter: @abdulllah1994

شعورنا وامزجتنا . أنا بدأت اؤمن ان « النوع » ـ اللوحة أو التمثال أو أي أثر فني آخر ـ الذي تفهمه العين بسهولة وتألف خطوطه وألوانه ومعانيه ، غالباً ما يكون مبتذلاً بارداً يجلب النعاس الى الجفون ، حتى ان الناظر اليه يكاد يتثاءب.. بخلاف « النوع » الذي يعصى على العين فهمه بسهولة ، فانه يهيّج المخيلة .. وفي التهيُّج والفهم بعد التعب نشوة عظمى ! ألا ترى معي يا يوسف كيف ان هذا النوع محاولة للتعمق في التفكير ؟ هو الابداع .. وفي الابداع لذة تفوق كل اللذات !

هنا تناولت أنا الكلام وقد شعرت ان جبران قال ما يريد ان يقوله ، وبقي ان ابدي أنا وجهة نظري في الأمر فقلت : أجل .. هذا كلام جميل ، تتناقله المجلات والصحف الفنية وتعيده من ورائها الألسن في هذه الأيام ... غير انني على يقين بأن للجمال سمة أزلية ، وان الفنان الذي لا يهمُّه الجمال ولا الكمال ولا يحلو له غير الممسوخ « والملولق » من الأشكال وينحرف عن الخطوط الطبيعية المطلقة الروعة والحسن ـ ان هذا الفنان ـ اسمح لي يا جبران ان أقول لك بصراحة ، ليس جديراً باعجابي ، ولن يكون لنتاجه في المستقبل ، متسعٌ في هذه القاعات ..

ثم أليست الآثار الفنية انطباعات الفنان الخاصة للبيئة التي يعيش فيها ؟ ها أنا أتلفّت حولي ، في كل وسط باريسي

Twitter: @abdulllah1994

ناطق بالجمال الأصيل ، فلا أرى أي أثر لهذه « البشاعات » السافرة التي يتسابق الفنانون « المودرن » دون حياء ، الى تسجيلها في المادة ، فهل أنا أعمى أم ماذا ؟

ـ قد تكون هذه الانطباعات مرتسمة في عقولهم ، يا يوسف ! قاطعني جبران ، ثم أردف وقد رفع اصبعه في وجهي :

ـ هذا موضوع طريف يستحق درساً عميقاً ... سأفكر فيه الليلة ...

وعُدت أنا اكمل حديثي مع جبران بالحماسة نفسها :

ـ حدّق ، وجوتك ، من هذه النافذة على ذيّاك المنسرح فوق حديقة « التويلري » ومجرى نهر السين ... وكيف ينشلح النور الناعس المغبرّ كوشاح شفاف على وجه باريس ... أنا طالما لاحظت ان لكل مدينة كبيرة في العالم جوّها الخاص ولونها السحري ومسحتها الجمالية ... تماماً كوجوه العذارى .. لكل وجه لونه من الفتنة أو الطهر وما اليه ...

كنت اتكلم وجبران مصغٍ بكل حواسّه وعيناه الحالمتان تحدقان في البعيد ، ولما انتهيت من هذا التشبيه قال : على ذكر المدن الكبيرة ... آه كم اشتهي ان اشاهد وجه اثينا واجلس الى خرائب الاكروبول ! اشعر دائماً ان شيئاً سينقصني ، اذا لم اصلّ ، يوماً ، في هيكل « مينرفا » .. واذا لم تطأ قدماي ارض روما وفلورنسه

Twitter: @abdulllah1994

والبندقية ... أجـــل ، ستبقى حسرة في قلبي ! هنيئاً لك أنت يا يوسف ، لقد زرت هذه المدن وعشت فيها . كيف السبيل الى زيارتها ؟ هل تعتقد اننا اذا اقتصدنا في المصروف نوفر ما يكفي لرحلة من هذا النوع ؟ انت تفهم اللغة ولذا نحن سلفاً نوفر اجرة الدليل ! وضحكنا معاً .. ثم قلت : ان السفر الى هذه المدن يكلفنا مالاً كثيراً .. أليس الحق مع سوسان .. المال ولو من الصين ؟ فهزّ جـــبران رأسه وكرر عبارته المأثورة : « لعن الله المال كيف يقف عثرة بين المرء وأمانيه ! »

خرجنا من متحف اللوفر وسرنا على ضفاف نهر السين نتفرّج على الكتب القديمة والرسوم الفنية ونستكمل احاديثنا . وكان المساء الكئيب يرمي على باريس الوانه الدافئة الساحرة . وبدا جبران كجزء من المساء ، قلقاً كئيباً ، ثم التفت إليّ وقال :

ـ ان بنجامين فرنكلين عزم في سن الخامسة والعشرين على التوصّل الى اوج المعرفة والحكمة ، وتم له ما اراد ... وها نحن في السابعة والعشرين وعندنا مطامح كبيرة فماذا حققنا منها ؟ قـــل لي بربك يا يوسف ، هـل تلاحظ فيّ شيئاً من النقص يمكنني اصلاحه ؟

Twitter: @abdulllah1994

فكنت اتوجه اليه بالبراءة نفسها : « وأنا أسألك السؤال ذاته ، يا جبران ! »

هكذا تماماً كانت حالتنا النفسية في ذلك الحين ؛ اذكر ذلك جيداً كأنه حدث أمس ...

Twitter: @abdulllah1994

حديث اولغا

قصر اللكسمبورغ في باريس هو مقر مجلس الشيوخ الفرنسي، وفي حديقته الغناء لجهة شارع « داسّاز » اغراس من الاجاص شُدَّت اغصانها الى عيدان حديدية ذات اشكال هندسية لطيفة .. وفي ايام الربيع تبدو هذه الاغصان مشكوكة بالبراعم المشعشعة الزاهية ، لا ابهى ولا اروع !! يحوّم عليها النحل في زوغـــان طنينه الحلو الرتيب ، حتى اذا عقدت الازهار ثماراً ، فرّدها البستاني ، على مرأى من روّاد الحديقة المتنزهين وغلّفها بالورق واحدة واحدة ليصونها من الحشرات ، حتى اذا تمَّ نضجها حملهـــا هدية فاخرة الى رئيس مجلس الشيوخ ...

والى جوار اغراس الاجاص هنالك اشجار مترامية من الحَور والكينا ، تمتدُّ بينها مرجات موّاجة بالخضرة المرشوشة بالزهر ... وفي ركن منعزل بين الأشجار العالية المتعانقة ، كان يطيب للآنسة اولغا الاستلقاء عـــلى العشب ، تطالع وتكتب ، واشاركها أنا أحياناً هذه الجلسات الممتعـــة الهادئة ، فاذا عنَّت لأحدنا فكرة عابرة ، عرضها على رفيقه

Twitter: @abdulllah1994

بأناة ، وتلا العرض مناقشة على الصعيد الفكري العالي ، يكون الدور الأول فيها ، على الغالب ، لأولغا .

فاجأتني مرة بالسؤال ونحن في احدى خلواتنا : أليس من غريب الصدف في امرنا نحن الاثنين ، انت من اطراف آسيا الغربية شرقي البحر المتوسط وأنا من اطرافها الشرقية ، ان نلتقي هنا في باريس ـ المدينة الفاتنة بين المدن ـ وفي هذه الحديقة الحسناء بالذات ؟ .. انها حقيقة اشبه بالحلم !

كانت تتكلم بهدوء ، مائلة اللحظ عني ، الى عصافير من الدوري تتلهّى بمداعبتها ، ناثرة لها فتات البسكوت على مدى يدها ... فتقترب العصافير اولاً بحذر ، ثم بشيء من الاطمئنان ، حتى اذا ارتاحت الى انها في امان ، حطّت على كتفيها وعلى ذراعيها وحضنها وراحت تنقر الفتات من بين اصابعها ، وتتدافع عليها ، بالأجنحة المنشورة حيناً والمطوية حيناً آخر . كل هذا وأنا صامت لا أبدي حراكا لئلا أُجفل هذه المخلوقات الصغيرة فتهرب وتحرمنا انسها ... ولم اشأ كذلك ان اعكر صفو تفكير اولغا ، البريء كل البراءة ... قالت :

ـ أنا وحيدة لأبويّ .. والدي صديق الكونت « ليون تولستوي » وثمة قرابة بعيدة بين والدتي والكونتيس ... من ذكريات طفولتي ان والديّ كانا يصطحباني معهما الى

Twitter: @abdulllah1994

« ... بوليانا » مقر عائلة تولستوي فكان الكونت ليون ... ويجلسني على ركبته بحنان ويتركني أداعب لحيته ... ما في الطفل من فضول ... وهو منصرف الى مباحثة والدي في شتى المواضيع ... اذكر يوماً انهما كادا يتخاصمان لاختلافهما في الرأي حول مبادىء الفيلسوف الالماني « نيتشيه » .. والدي كان من المعجبين به ... بعـــد سنين طالعت بعض مؤلفاته ، انما ليس بالحماسة التي تصوّرت اذ كنت متأثرة برأي والدي ... »

هنا التفتت اليّ تسألني فيما اذا كنت قرأت شيئاً من نيتشيه .

- كلا ...

وعلا زعيق العصافير تتناقد في شبه معركة عـلى كسرة بسكوت ، فتنهرها اولغا باصبعها ، في منتهى اللطف : « بلا عركة .. اليكم هذه الدفعة الجديدة من البسكوت ... كلوا ولا تتعاركوا ! » قالت هذا وعادت الى الحديث :

ـ لقد سعى الكونت ليون لوالدي فعيّنه القيصر بين اعضاء « الدوما » (مجلس النواب) فكان والدي أول رئيس لأول « دوما » .. في ذلك الظرف كدت ادخل القصر وانضم الى حاشية الامبراطورة « الكسندره فيدروفنا » لكن ذلك لم يرق لوالدي . كما انه بدوره فضل الابتعاد عن السياسة وعن

Twitter: @abdulllah1994

القصر ليدير جامعة توسك البعيدة ... اذكر جيداً ما قاله لي مرة : « القصر يا ابنتي معفن الجو ، حتى ان أحد الرهبان اخذ يسرح ويمرح فيه ويفسد اخلاق النساء الحسناوات ... الآخرة قريبة ، يقول الكونت ليون »

وأضافت بعد فترة صمت ومراقبة عصافير الدوري في لعبها وعبثها ...

ـ مسكين الكونت ليون .. انه الآن في حالة حرب مع امرأته ... وقد كتبت الى والدتي تشكو اليها سوء الحالة ... فأوصتني والدتي بان اتوقف في موسكو بطريقي الى باريس ، واعرّج على يازنايا ـ بوليانا وانصح الكونتس برفق ، ان تترك زوجها ـ وقد جاوز السبعين ـ يعيش حياته على هواه ، ودون معاكسة ... وقد تبين لي بعد مقابلة الكونتيس انها تريد من زوجها ان يحفظ مقامه ، ويحرص على الظهور بالمظهر الذي يليق بأكبر كاتب في روسيا .. وقد شاهدته بهاتين العينين يرتدي ثياب « موجيك » ويمشي حافياً ليس فقط داخل البيت ، بل خارجه ، ويغسل قميصه بيديه على الرغم من وجود الخدم ... ويمتنع عن مقابلة الزائرين والزائرات الذين يقصدونه من اماكن بعيدة ـ يمتنع ويصرّ على الامتناع هكذا بدون سبب ـ ويعاشر الفلاحين ، وقد اهداهم معظم املاكه وضياعه . ومن احاديثه لي حول هذا الموضوع : « نعل فلاح » يا اولغا ،

Twitter: @abdulllah1994

ساوي في نظري كل الغنى والشرف .. أنا اعرف الاشراف .. عاشرتهم زمناً ... كنت واحداً منهم ... ولا انسى ما حييت كيف اني وجدت يوماً بعد ما قضيت الليل ساهراً في احد القصور ، سهرة أكل وخمر ولهو ورقص ... وجدت عند الفجر ... الحوذي المسكين مجلداً من شدة البرد ... ميتاً على كرسيه ... في انتظاري ! آه يا بنيتي كيف لي ان انسى هذا المشهد ؟ اؤكد لك ان هذه الحالة لا يمكن ان تدوم ... الآخرة قريبة !

وتابعت أولغا قائلة :

– اغتنمت فرصة لرتياحه اليّ واسترساله في حديث انساني حنون ، وتلفظت ، همساً ، باسم الكونتيس ، على سبيل التوفيق بينهما ، فما كان من الكونت ليون إلاّ أن غضب وحملق عينيه مؤكداً لي : « ان على الرجل والمرأة ، ان يتوصلا في حياتهما الزوجية الى العفة الكاملة » ... لم افهم تماماً ما عناه بهذا الكلام ، وحاولت من جديد ان اقول شيئاً فقاطعني بنزق وأنهى جملته واقفاً على قدميه : – « نحن يا بنيتي نعيش هذه الحياة البليدة التي لا تحرز العيشة لأنه ليست لدينا الشجاعة الكافية لترك الحياة » ... قال هذا وانصرف عني تاركاً إياي كتلة من الحيرة والاضطراب .

ومرّت فترة سكوت قبل ان تعود أولغا الى الكلام :

Twitter: @abdulllah1994

– والدي الآن على اتصال ببعض الناقمين على سوء ما آلت اليه الحالة في روسيا ... هم يحلمون .. لا اعلم بأي « اصلاح » ، بأي « انقلاب » . وقد كتب لي ان أحد اصحابه « ولدمير .. » سيمرّ بباريس في طريقه الى لندن لحضور مؤتمر سياسي ، ويوصيني والدي ان اكون في خدمته واسهّل مهمته . وما عباي أن استطيع فعله ؟ أنا أكره السياسة .. ولا أريد اهمال دروسي ... وأضافت بلهجة خاصة وقد عبقت وجنتاها بلون الورد الجوري : وهذه المرجة الخضراء ... واصدقائي العصافير ... والهنيهات الناعمة ؟

وكنت طول هذه المدة منصتاً الى حديثها الشيق ... بل أكثر من ذلك ، كنت عالق العين والقلب في انفعالات وجهها الناصع النقي ، وفي يديها البضتين وكيف تلتفّ عروقها – حتى عروقها – في فرط تناسق وانسجام . وأتحاشى النظر إلى عينيها تشردان عني بعيداً ... إلى أن ابتدأ الهواء المصقع الرطيب يلفحنا ، وحان موعد افتتاح المعهد الفني ، فناولتني أولغا يدها الصغيرة الطرية ، فساعدتها على النهوض ، ثم راحت تعدّل الشال وتلفه حول كتفيها بحركة انثوية لطيفة . ومشينا جنباً الى جنب ، على الحشيش ، في خروجنا من حديقة اللكسمبورغ ..

وفجأة قطعت عليّ تفكيري ، كأنما ارادت أن تنقلنا معاً إلى جو جديد ... قالت : كم يعجبني صديقك جبران !

Twitter: @abdulllah1994

يعجبني فيه طموحه للوصول الى البعيد . عندما يتكلم يخيل إليّ أنني أرى شبـــه هالة حول رأسه . وكم يلذ لي سماع أحاديثه . هي دائماً معطرة بعبق من روحـه الجميلة ! ترى، هل من امرأة في حياته ؟ أعني لا بد أن تكون في حياته امرأة ! » والتفتت نحوي كمن يريد الجواب .

ــ ربما .. من المعقول جداً ؛ إنما ، أنا ليس من طبيعتي التطفل على حياته العاطفية .

ــ حسناً تفعل ، لأن حياة الإنسان العاطفية ملكه وحده..

كنا قد وصلنا إلى المكتبة الفنية في شارع « ڤاڤن » ، فافترقنا : هي دخلت لمشاهدة الآنسة سوسان في المكتبة وأنا اكملت سيري نحو المعهد الفني .

احتوتني قاعة الرسم ... ساعتين بكاملها ــ جالساً أمام « الموديل » ــ صبية بعمر الربيع ، عارية مثل امها حواء قبل أن زينت لها الحية أكل التفاحة . كل حركة أو خلجة من خلجات جسدها تنطق بالحسن وتفيض بالحياة ... يرمقها الزملاء حولي بنظرات الاعجاب واعمق ! مـــاذا بي أنا ؟ ما عسى قد اصابني ؟ لِم أراني مشغولاً عنهـا بصاحبة اليد البضة والوجه النقي البشرة والشعر المائل الى الشقرة ؟ لماذا افكر هكذا بالآنسة اولغا وتعود كل كلمة من حديثهـا ترن في اذني وتحول دون تركيز فكري بجد على «الموديل»

Twitter: @abdulllah1994

العارية امامي ، وكأنها في عيني من الحجر الصلد :

« كان الكونت ليون يجلسني على ركبته ويتركني أداعب لحيته ... »

« هو الآن في حالة حرب مع امرأته ... »

« على المرأة والرجل أن يتوصلا في حياتهما الزوجية الى العفة الكاملة ... »

واخيراً « هل في حياة جبران امرأة ؟ »

Twitter: @abdulllah1994

الزّوبعة الربيعيّة

توجهت من المعهد الفني في اتجـــاه مقهى « الدوم » ، فوجدت هناك الصديق كالمي مع الدكتور كسپار ، وهو شاب بلجيكي يتمرن على درس طبيعة المكروبات في معهد پاستور . ولم يلبث الدكتور ان نهض قائلًا : اسلمكما ، الواحد إلى الآخر – أنا على ميعاد ...

– مع فتاة حلوة ؟

– كلا ! بل مع مريض ينازع !

وتناهى إلى اسماعنا من الخارج عصف زوبعة ربيعية ... ولا أدري ما الذي كان يدور في رأس كالمي عندما التفت إليّ قائلًا : كل إنسان يحمل عِدل همومه على كتفيه ... ويتراءى لي يا صديقي ان عدلك خفيف . أنت تمشي مستقيم القامة ... رسومك ، أين رسومك ؟

دفعت اليه ببضعة رسوم كانت بين يدي فراح يستعرضها ويطيل النظر الى كل منها على حدة ... وأخيراً قال :

Twitter: @abdulllah1994

ـ هذه الرسوم أيضاً لها ثمن ... وعليها طلب .

ـ عندي منها مجموعة ... أضعها من الآن في عهدتك .

ـ أنت يا جوزيف حقاً طيب القلب . أما الروح التجارية فعدم !

ضحكنا معاً ثم أتمّ كالمي حديثه :

ـ لقد زرت هذا الصباح برفقة احد مخرجي السينما صديقك جبران وحدثنا عن مواضيع قصصه ، فلم نجدها ـ للأسف ـ صالحة للاخراج . ذكرتني حالته النفسية بالحالة التي مررت أنا بها منذ ... عشر سنوات . جبران قوي الإيمان بشعوره وهو مخلص في تفكيره . وفي دماغه يرغل عالم مترامٍ لا حدود له . وعنده الرغبة لاستغلال مواهبه . ولكن لا تنسَ يا صديقي اننا نعيش في باريس مرتع الروائع الأدبية الخالدة . بعد بلزاك وفلوبر وزولا وفرانس وغيرهم ، ليس سهلًا ان يتسع الجو لغريب ... لا يحسن اللغة .

وشعرت ان من واجبي الدفاع عن جبران فقاطعت كالمي :

ـ ولكن ... في نية جبران ان يلعب ورقته في الولايات المتحدة . وهو يجهز العدة لذلك . له هناك اصحاب يقدرون مواهبه ويهتمون لأمره . وهو يحسن

Twitter: @abdulllah1994

الانكليزية كأهلها ولذا يمكنه أن يتحرك بسهولة في الوسط الأميركي .

ـ عندي فكرة ! قال كالمي ، أنت وجبران في استطاعتكما ان تربحا اموالاً طائلة .. وهنا في قلب باريس ! اذا لبستما زياً شرقياً ، وعمامة ، وجربتما نوعاً من التصوير على شيء من الغرابة والغموض وبمساعدة بعض السيدات واصحاب المخازن من ذوي الخبرة في فن الاعلان ! جو باريس خصب في هذا الزمان لمثل هذه الامور ...

ـ هل افهم من كلامك انك تريدنا ان نتعاطى الشعوذة ؟ اعوذ بالله اعوذ بالله ! رجوتك يا صديقي ألا تعود الى مثل هذه المقترحات « الوجيهة » ومخاصة امام جبران ! والآن لننسَ ما كان وهات خبرني كيف ولماذا جئت الى باريس ؟

وكانت لهجتي واضحة وأشبه بالأمر . قال كالمي :

ـ .. في سن العشرين . كنت قد أنهيت دروسي في جامعة بوخارست وملت الى الآداب وشغفت بالكتابة حتى انني احرزت بعض النجاح مما ضخّم الآمال في رأسي ـ على نحو ما يحدث في هذه السن ! أحببت فتاة حباً جنونياً وهي أيضاً بادلتني الحب ورأينا السعادة فقط في تحقيق آمالنا بالزواج ، لكننا صدمنا بواقع مخيف ، وقيل لنا بجزم ان

Twitter: @abdulllah1994

سعادتنا لا يمكن ان تجنى لاختلاف بيننا في الدين ، فأنا يهودي وهي مسيحية وابنة كاهن ! وتمكنوا آخر الأمر من تزويجها – رغماً منها – إلى رجل لا تحبه . فجنّ جنوني وتوترت أعصابي وطار عقلي وتراءى لي ان كل ما هو خارج عن دائرة الطبيعة مصطنع . وعددت المصطنعات فالفيتها لا تحصى ورأيت الناس غرقى فيها لفوق رؤوسهم . يسبحون كما يسبح السمك في البحر ! ألويل لمن يبقى عنقه تحت النير فيرزح بثقله ، والويل أيضاً لمن يحاول كسره وفي يد القدر الغاشم المستبد « المسّاس » والسوط ! بعد هذه الازمة التي ... لا تسلني كم عانيت منها وضعت تصميما لكتابة قصة عاطفية ثورية ، وعرضت الفكرة على احد الناشرين فأجابني مشدوهاً : « هل في نيتك ان تخرب بيتي ؟ » وليته اكتفى باضعاف عزيمتي لكان الأمر انتهى عند هذا الحد ، ولكنه خانني واطلع قلم المراقبة على مرادي . بذلك « كسر مزراب العين » ، وانتشر الخبر ، ووصل إلى الحاخام ورجال الدين وهؤلاء لم يتوانوا عن الاتصال بولي العهد الامير فرديناند والاميرة ماري . ونصحني اصدقائي بالهرب إلى باريس حيث كانت عمتي قد لجأت مع أولادها في ظروف متشابهة ، ذهب فيها زوجها ضحية الجهل والظلم ..

وهنا قاطعت كالمي لأخفف عنه الكآبة التي ارتسمت على محياه :

Twitter: @abdulllah1994

ـ حسناً فعلت ... « الهربة ثلثين المراجل ! »

اشتدت الزوبعة في الخارج . ومع الوافدين إلى المقهى كان الهواء البارد ينفخ علينا بغضب . وثمة صبايا ، أشبه بطيور البحر ، يحمن حولنا طالبات قوتاً ! وأخيراً رجع الدكتور كسپار مهرولاً وأخبرنا ان المريض قد فارق . وأضاف بعد تفكير : الحقيقة يا اخوان ، عندما يموت الإنسان فهو حقاً يموت ! وما الحياة على الأرض سوى شيء من العفن !

ثم سألنا اذا كانت الآنسة « مارتين » قد مرت بالمقهى ولما اجابه كالمي بالنفي جلس ، بعصبية ، يعبّ كاساً من حساء البصل الساخن ... ونهض بعد ذلك ، بادي القلق ، وذهب وتركنا أنا وكالمي جالسين في الزاوية الدافئة ، وقد اقفرت من الزبائن بسبب رداءة الطقس ...

بعد سكوت بادرني كالمي :

ـ فيما نحن خارجون هذا الصباح من عند السيد جبران شاهدنا سيدة ـ واظنها اميركية ـ تدخل متهادية ... وكأنها داخلة إلى بيتها . المرأة يا صديقي ، وحدها ، تدفئ جوّ الرجل الموحش البارد . ألويل لمن لا تدفئ جوّ بيته امرأة.

ـ تشوفتي فيك بردان ! قلت له . اطمئن يا صديقي ،

Twitter: @abdulllah1994

بعد الزوبعة سيهـــدأ الطقس وتعود ايام الصحو ... وأيام الحر الثقيل أيضاً !

والتفتنا معاً إلى مدخل المقهى وقد وفـــد منه ثلاث فتيات ، من طيور البحر ! بينهن الآنسة مارتين . فناداها كالمي وأخبرها ان الدكتور سأل عنها وانه كان بادي القلق كثير التشاؤم . وقد التهم كاساً من حساء البصل وذهب . فقالت :

ـ وأنا أيضاً اشتهي كاس حساء ساخن وأبدت رفيقتاها الرغبة ذاتها . فصفق كالمي للخادم ونادى بصوت عال :

ـ جئنا بخمس كاسات ، وصحن بطاطا مقلية ، وزجاجة خمر أحمر ... واردف بصوت منخفض : الإنسان لا يعيش مرتين على هذه الأرض !

وما اسرع مـــا شغلنا بالأكل والشرب ؛ وراح كالمي يمازح الفتيات وأنا اسانده ، ثم ينتقل ثانية إلى تحليل مأساة الحياة فأنتقل معه ! وقرّبت الآنسة مارتين فمهـــا من اذني وسألتني همساً وبتحفظ : رجوتك ، قـــل لي بصراحة هل الله موجود أم لا ؟

كنت أنتظر كل الاسئلة تحت الشمس ما عدا هذا السؤال ، على الأخص في هذا الظرف وفي هذا الجو بالذات ، ومن

Twitter: @abdulllah1994

م فتاة باريسية مثـــل مارتين . فلم ادر ماذا اجيبها ... وعادت تـسألني وتلحّ :

ــ يبدو انك كثير الاطلاع واسع المعرفـة ، فلماذا لا تجيب عـلى سؤالي وتكفيني مؤونة القلق الذي يتنازعني ؟ هل يكلفك ذلك مشقة كبيرة ؟ قلت لها :

ــ هل سألت صديقك الدكتور هذا السؤال ؟ هو ايضاً كثير الاطلاع واسع المعرفة .

ــ نعم سألته ، فكان تارة يقول انـه موجود وتارة غير موجود !

وسمع كالمي طرف الحديث وفهم معناه فعلّق وقـــد رفع انفه وحاجبيه :

ــ هي المرأة ، عـلى الغالب ، التي تجعل الرجل يعتقد أو لا يعتقد بوجود الله . فاكملت أنا :

ــ حينئذ يمكنه ان « يشعر » بوجود الله اذا كان بحاجة إلى ذلك ، دون براهين كلامية جدلية ، متى تعقدت وعمقت لا تعود تعبّر عن شيء ، لقد حبّر « كانْت » ثلاثة صفحة و « سپينوزا » لا أعرف كم مئـــة صفحة وغيرهما كتبوا المجلدات ، لكي يبرهنوا عن وجود الله ... مـع ذلك لا

Twitter: @abdulllah1994

يزال الشك يزعج ضمائر الكثيرين ويشوّش عليهم طمأنينتهم الهنيئة . وقالت مارتين متنهدة :

ـ ليتني اتمكن فقط من التأكيد ان كان موجوداً أم لا ! قلت لها :

ـ اطمئني أيتها الآنسة وكوني على ثقة بان الله موجود في كل مكان . وكل شيء يشهد على وجوده ...

ووافقت إحـــدى الأوانس بهزة رأس متواصلة، وقالت لمارتين بلهجة المنتصر :

ـ السيد على حق ! ألم أقل لك انه موجود ؟

لا أظن انه كان يمكن لأحد ممن شاهدونا ملتفين ،، بعضنا على بعض في تلك الزاوية الدافئة ـ لا أظن انه كان يمكن لأحد ، ولو كان نبياً ... ان يحزر موضوع حديثنا ، في تلك الليلة الباردة ... بمقهى الدوم ... لا أظن !

Twitter: @abdulllah1994

اللغة السريانية

... اليوم الثاني ، بينما نحن في انتظار « الموديل » سألني جبران : هات ما عندك من الاخبار ؟ أين كنت سهران الليلة الماضية بينما كانت الزوبعة تعصف على باريس ؟

ـ كنت غرقان في زاوية دافئة بمقهى الدوم ، مع كالمي ، الدكتور كسپار وبعض الفتيات !

فقال جبران :

ـ على ذكر كالمي ... لقد جاءني البارحة يرافقه مخرج سينمائي . ويبدو ان قصصي لم تحظ بالرضى . قدرت ان أفهم من تلميحاتهما بانها غير صالحة للاخراج . وبالحقيقة يا يوسف أنا لست راضياً عن كل ما كتبته حتى الآن . لقد حاولت التعبير عن بعض مشاعري الخاصة ، وقلما يهتم الناس لهذه المشاعر ، لا سيما وانها لم ترتفع بعد الى المستوى الذي أريد . أنا موقن ان عندي « شيئاً » أقوله للناس ، انما لم يحن أوانه بعد ... ماذا اخبرك كالمي والدكتور ؟

Twitter: @abdulllah1994

ـ أشياء كثيرة ... من جملتها قصة عاطفية وقعت لكالمي وجعلته يعتقد ان كل ما كان خارجاً عن دائرة الطبيعة فهو مصطنع . وقد زاد الدكتور كسبار تشاؤماً فقال : « لبئست الحياة على الأرض سوى قليل من العفن ! » . هزّ جبران رأسه معلقاً :

ـ كل هذا يجوز أن يكون صحيحاً لكنه بارد ومظلم يفحم القلب . الحياة يا يوسف بحاجة إلى التبرُّج والزينة والشعر والحب . ولولا ذلك لملَّها الإنسان وكرهها ، وآثر عليها الموت .. فقلت له :

ـ هل يمكنك ان تحزر ماذا سألتني إحدى الفتيات ؟ لقد سألتني بكل جدّ ان كان الله موجوداً !

وضحك جبران للسؤال واشعل سيكارة وعبَّ من دخانها ، ثم نفخه في الهواء قبل أن يسألني :

ـ وماذا كان جوابك لهذه الفتاة ؟ عمك بطريرك وتفهم الالهيات ؟ وقبل ان يمهلني جبران للجواب تابع الكلام وراح يحلل اصل المعتقدات الدينية ، ويعدّد الآلهة عند الأقدمين ، وكيف ان لمعظم الناس في هذا الزمان الهاً واحداً ، وان بينهم من يشكُّ حتى بوجوده . وأخيراً قال : في نيتي كتابة درس عن « الدين والتديُّن » .

Twitter: @abdulllah1994

وحسب عادتي أشرت عليه ألا يضيع وقته بالاهيات وقد سبقه من كتب فيها المجلدات الضخمة وبقيت الحالة كما هي .. وكل انسان على الأرض راض بمعتقده ، وبما لقّن من طبيعة دينه غداة ولدته أمه !

ولدى حماسة جبران سألته مستفهما :

ولماذا كل هذه الرغبة في الكتابة ؟ أجاب : لعلها غريزة فيّ يا يوسف . اذكر اني عندما بدأت « أخرطش » كما يفعل الأولاد – حتى في ذلك العهد المبكر – كنت احلم في أن ابيع رسومي وأربح منها . وكذلك كنت عندما اطالع قصة طريفة يحفزني دافع قوي لكتابة القصص ، وأنا اليوم اؤمل بأن كتاباتي ستغلّ عليّ يوماً . وثق ان النشوة الحقيقية لا تهزّني إلاّ عندما ارسم أو أكتب .

وعلى سبيل المزاح اطلعت جبران على نصيحة كالمي بأن نتزيا بالزي الشرقي وننصرف الى رسم الصور الغريبة فاعترض جبران بشدة قائلاً : كلا أبداً ! هذا هراء . الشعوذة ليست من شأننا يا يوسف !

في تلك الصبيحة لم تحضر « الموديل » على عادتها ، وكان جبران مدعواً إلى الغداء فتركته وذهبت الى مطعم « مدام بوده » .

Twitter: @abdulllah1994

وفي المساء بعد الانتهاء من الشغل في المعهد الفني توجهت إلى مقهى « الدوم » لقضاء السهرة فاذا بالدكتور كسپار يلاقيني مهدداً برفع اليد :

ـ تعال ، مسيو جوزيف ، اجلس بقربي . أنا في انتظارك.. بيننا حساب . لماذا قلت لمارتين ان الله موجود ؟

ظننت ان في الأمر ذنباً حقيقياً ! وأي جريمة في ان تعتقد الفتاة بوجود الله ؟ أليس ذلك خيراً لها ؟ وهل ثمة شيء ألطف من سماع حسناء باريسية تستفهم عن الالهيات ؟ قلت :

ـ أنت مخطئ يا صديقي واذا كان لا يلذ لك سماع ذلك ، فالزم في تحدثك عالم المكروبات ! انه حقل تخصّصك ولا ريب انه ممتع !

فأجابني بلهجة أقل حماسة من قبل :

ـ المصيبة هي هؤلاء الذين يستغلون فكرة الاعتقاد بالله ...

وارتفعت من صوب الباب جلبة عالية قطعت علينا الحديث ، واقبل نحونا فوج من الصحاب : سوسان ، ليا ، كالمي ، وبعض المعارف وبينهم رجل غريب . وجاء الخادم مهرولاً ، وقرّب طاولة ثانية من طاولتنا فاتسعت الحلقة وبدأ التعارف . ولما سمع الرجل الغريب اسمي وانتبه الى ليّا تكرر كلام جبران وحركته : « من هناك .. من لبنان .. قرب اورشليم » اظهر بهجة وانشراحاً وقال انه سعيد جداً بلقاء شرقي لبناني .

Twitter: @abdulllah1994

وانه هو من « براغ » عاصمة بوهيا ، يعنى بدرس اللغات الشرقية ولا سيما السريانية . وسألني اذا كنت أعرف هذه اللغة فأجبته : نعم ، بإيماءة رأس خفة وبدون تحمّس للأمر ، ذلك ان معرفتي للسريانية جدٌّ محدودة ، تعلمتها وأنا صغير لكي اخدم القداس للمرحوم جدي الخوري مخايل ، وكنت اعيد العبارات كالببغاء دون أن أفهم معنى كلمة واحدة !

ولكن الرجل الغريب اظهر هتماماً وطلب اليّ ، ان أتلفظ بعبارة سريانية لكي يسمع رنّة وقعها ، وانحرف في جلسته نحوي في انتباه واصغاء وجاراه الرفاق تأدُّباً ، حتى سوسان وليا ، كلهم أصغوا إلى ما سأقول ... ولما وجدت نفسي محطّ الأنظـــار والاسماع قلت دون ان اتلعثم : « مِنْ فولوطين دشمايُو عـيره إشادار » فلم تتمالك ليّا من اطلاق ضحكتها الرنانة الساخرة .وقال كالمي : هـــذا يشبه العبراني ! اما العالم « البوهيمي » فكادت الدموع تطفر من عينيه لشدة التأثر ورجاني ان اعد العبارة كلمة كلمة وراح يرددها من بعدي ... ثم سألني عبارة ثانية فلبيت طلبه على الفور هذه المرة وبصوت أعـــلى : « عَلْ عِطْرُه دبِسمه طُوبِه دحلتخ مُوريُو نَدابارَي وبزاديقوتو الآفين . »

بهت الجميع وعلت وجوههم الدهشة في حين انصرف العالِم المستشرق إلى الشرح والإيضاح بأن هنالك تقليداً عند العرب واليهود وآباء الكنيسة مفاده ان اللغة السريانية هي

Twitter: @abdulllah1994

لغـة ابينا آدم ـ أول إنسان ـ وان بعض العلماء يعتقدون بأن أول نسخة من التوراة كانت بالسريانية ، وبأن المسيح وتلاميذه تكلموا هذه اللغة ، واخيراً اخبرنا بأنه قد تناهى الى سمعه ان الموارنـة في لبنان لا يزالون يستخدمون السريانية في طقوسهم الدينية .. وانه الآن في طريقه الى الشرق للوقوف على عمليات التنقيب الجارية هناك ، ووسألني اذا كان بامكاني اعطاؤه رسائل توصية فوعدت بتسليمه رسالة إلى صديقي مطران بيروت وثانية إلى عمي بطريرك الموارنة .

عنـــد ذاك أطلّت الآنسة مارتين من الباب فنهض الدكتور كسپار للتوّ وهو يقول معلقاً على حديثنا :

ـ آ ... الآن فهمت لماذا أنت « تشد على مشدّه » وتعظ الفتيات بوجوده ... بينكم قرابة !

ثم ودّع وانصرف .

Twitter: @abdulllah1994

نزهة ليلية

دخل جبران قاعة الرسم في المعهد الفني حاملاً تحت ابطه محفظة اوراقه واقلامه والقى نظرة تأمّل طويلة على «الموديل» وهي صبية عارية مستلقية على المنصّة تظهر عليها امارات السأم والإعياء، فبدت منه اشارة عدم الرضى، وبحث بعينيه عني ثم اقترب مني وهمس في اذني :

ـ هذه المسكينة توحي إليّ بالشفقة . لا رغبة لي في الرسم . نَفَسي يضيق حتى الاختناق في هذا الجو الواجم الكئيب . افضل النزهة على ضفاف النهر لمشاهدة هول الفيضان .

تركنا الاوراق والأقلام في عهدة مدام كاترينا ، فاستفهمت بقلق عما اذا كانت « الموديل » لم تعجبنا ، وتمنت لنا نزهة جميلة .

عشر دقائق على الاقدام وكنا على رصيف « ڤولتير » . مررنا امام تمثاله فقال جبران :

ـ هذا هو عمك بطريرك « فرني » . سلم عليه .

فأجبت :

Twitter: @abdulllah1994

ـ اقترب أنت والمس طرف ثوبه لتحلّ عليك نعمة الضحك ولا تبقى هكذا عابساً ، لابساً وجهك بالمقلوب !

ووقفنا برهة نراقب المياه تتدفق من تحت الجسور ، تغلي وتفور وتطغى على جوانب الأرصفة ـ مشهد مخيف ورائع لقوى الطبيعة وجبروتها ، يزيده هولاً ظلام الليل والأنوار الخفيفة تلتمع وتتراقص على صفحة الماء متحدية الامواج الغاضبة السوداء .

كان جبران البادئ بالكلام وكنت أحسبه غارقاً في التأمّل :

ـ لقد زارتني الآنسة اولغا بعد الظهر ، واخبرتني ان الرطوبة من ارتفاع ماء النهر ابتدأت تتسرب الى المحل حيث تتمرن على البيانو . وطلبت مني السماح لها بنقله الى محلي . وأرى ذلك غير ممكن . فالمدخل ضيق ، ثم اني استقبل اصدقائي ومعارفي ، على الغالب كل يوم بعد الظهر... وعندي ان محلك أوفق ، مدخله يطلّ على الشارع وانت متغيّب عنه طوال بعد الظهر . والآنسة اولغا ، كما تعلم ، لطيفة مهذبة لا تسبب لك أي ازعاج . أنا لم اكن مخطئاً عندما قلت لك انها شريفة وذات اخلاق سامية . وقد زاد إعجابي بها ثقافتها العميقة . انها تتكلم الانكليزية والالمانية عدا الفرنسية والروسية . وقد حدثتني عن الكاتب الروسي

Twitter: @abdulllah1994

« تولستوي » وعن الفيلسوف الالماني « نيتشه » وابدت من الآراء والتعليقات ما زاد اعتباري لها ... آه يا يوسف ما اكبر الفرق بين امرأة وامرأة ! كأنّ النساء لسن جميعاً من فصيلة واحدة !

كنا قد اقتربنا من كاتدرائية « نوتردام » فوقفنا قليلًا في الساحة نتأمل في خطوط المدخل والواجهة ... منتهى الفخامة ! قلت لجبران :

ـ هذا المعبد الفخم قد رُفع على شرف « بنت البلاد » ستنا مريم .

ومرّ بالقرب منا شاب وفتاة : اليد باليد ، يتكلمان همساً ويضحكان بسعادة ونشوة . فقال جبران وقد نسي ستنا مريم :

ـ ما عساهما يخبران ؟ اشياء تافهة ولا شك ... مقطعاً من نشيد الحب الازلي ... مقدمة لسكرات الحب . وعندما تبرد العاطفة ، بعد هذه النار المتأججة ، يبدأ الخصام ويتبعه الفراق . وربما كان حاصل هذا الحب طفلًا جديداً يغتذي وينمو ليكبر ويعيد تمثيل المسرحية الازلية . موجة صغيرة على سطح اوقيانوس الوجود .

وكنا قد وصلنا في السير الى شوارع باريس القديمة وراء كنيسة القديس « جوليان الفقير » فسألني جبران :

Twitter: @abdulllah1994

ـ ما الذي فعله هذا القديس يا ترى ؟

أجبته :

ـ هل تعني جوليان الفقير ؟ لا أدري بالتمام ماذا فعل سوى انه مات شهيداً . أنا اعرف بالتقريب ماذا عمـــل « جوليان الهرطوقي » ـ الامبراطور الروماني .

ـ انت تميل إلى الهراطقة اكثر من القديسين . هـــذا صار مفهوماً عندي ! هات خبرنا ماذا فعل صاحبك الهرطوقي ؟

ـ اولاً كان يحب السكن في باريس ـ كان مثلنـــا ، صاحب ذوق ! ثم انه حاول ان يصلح غلطة عمه الامبراطور قسطنطين ويعيد لآلهة الاولمبوس هياكلهم وعزّهم ، وان يجعل عاصمة ملكه باريس عوضاً عن « بيزنطية » ليبتعد عن الجو الشرقي حيث تنشأ المماحكات وتتفشى بسهولة .

وهنا غيّر جبران الحديث ، كأنما اكتفى ، وراح يعيد نوادر بلزاك كيف انه كان يجوب هذه الازقة في الليالي الحالكة ، يلتقط التأثيرات ليودعها قصصه . وبالحقيقة ، فقد كان كل زقاق وكل باب وكل نافذة وكل شبح عابر يوحي إلى المخيلة بأشياء وأشياء عن مأساة الحياة وهزئها وجمالها وقباحتها .

في غمرة هذه التأملات العميقة ، كان جبران ينتقل الى عالمه المجهول فيسأل أو يتساءل :

Twitter: @abdulllah1994

ـ ونحن من نحن ؟ من اين أتينا والى أين نحن ذاهبون ؟ ما اشبهنا بأطياف تائهة في هذه الازقة الضيقة . بينما على مسافة قصيرة ، في الشوارع الفسيحة يجري نهر الانسانية ليضيع في اوقيانوس النسيان . غريبة هذه الحياة ، مَنْ يستطيع التنبؤ بحرف واحد عن مخبآتها والكشف عن غاياتها ومراميها ؟

لم أعد اذكر كل كلمة قالها جبران في تلك النزهة الليلية .. لكنني اذكر جيداً حالته النفسية . كان يجرر قدميه حاملاً جسده فوق الارض الباردة ، وقد حلقت روحه في الفضاء اللامتناهي ، وانسرح تفكيره الى ما لا حدود له .

وكنا قد اقتربنا من معهد « السوربون » فوقفت امام تمثال قائم وسط حديقة صغيرة ورفعت قبعتي اؤدي التحية وقلت لجبران :

ـ هذا هو الشاعر الكبير « دانتي » . زار باريس في مستهل القرن الرابع عشر ، فاقام له المعجبون به هذا التمثال .

فسألني جبران :

ـ إلى أين وصلت بترجمة الجحيم ؟ كم مرة ومرة وعدتني بأن تقرأ لي شيئاً منها ؟ ولا أرى وقتاً مناسباً لذلك كهذه الليلة ، فهلاً فعلت ؟

Twitter: @abdulllah1994

توجهنا الى محلي ، وقد راقني الاقـــتراح ، ولكي نصل بسرعة صعدنا « الترامواي » الى ساحـة « دنفر » ، وكنت طوال الطريق اشرح لجبران واحلل عظمة هـــذا الشاعر الكبير :

ـ هو الثالث بعد هوميروس وڤرجيل ، وربما فاقهما . هو اول اديب عصري ، لم يترك معنى ولا شعوراً إلاَّ وعبَّر عنه بفصاحة وعمق فائقين . وقد احب « بياتريس » وهو فتى في العاشرة من عمره ، وهي دون العاشرة ، ولكن الموت خطفها قبل ان تكمّل ربيعها العشرين . وينفى دانتي بعد ذلك لأسباب سياسية ، ويعيش عمره غريباً عن « فلورنسه » مدينته المحبوبة . وقد زفر يوماً في حرقة ومن اعماق قلبه هذا القول المأثور :

« آه ! ما اصعب الصعود والنزول في ادراج الناس ! »

واكملتُ حديثي قائلًا :

ـ ومع كل ذلك تغنَّى دانتي بأناشيد خالدة جعلته في مصاف اكبر الشعراء . ولم ينس ابداً حبيبة قلبه « بياتريس » فقد تردد اسمها في أناشيده فكأنها « دليلته » الامينة في رحلته الى السماء . وهناك من يؤكد انها هي ، لا سواها ، التي أوحت اليه الشعر ، وبقيت ينبوع وحيه الدافق !

Twitter: @abdulllah1994

قاطعني جبران وقد انتشى بحديثي عن دانتي :

ـ كم اود ان ازور فلورنسه لكي اشاهد الاجواء التي عاش فيهـــا دانتي وجيوتو وانجيلكو وبوتشالي وليوناردو وميكانجلو ومكياڤالي وغيرهم وغـيرهم ... ستبقى حسرة في قلبي اذا لم اتمكن من الصعود إلى قمة « فيازولي » .

وفي هذه اللحظة وصلنا إلى محلي ، فسألني جبران :

ـ هل يوجـــد شيء للأكل ؟ الأحاديث عن الشعر لا تشبع المعدة .

ولما احتوتنا الدار دفعت له بكاسة اللبن وبجمـع المربّى وعلبة البسكوت . وعملت فنجانَي قهوة ، وجلسنا بعـــد الاكل على الديوان : جبران يصغي مسنداً رأسه الى كفه ، وأنا اقرأ ترجمة النشيد الخامس حيث يتكلم دانتي عن الحب.

ابتدأت اقرأ الترجمة واردد بعض العبارات بالنص الطلياني ، في زعمي عـلى سبيل زيادة الايضاح ! ، ثم ارفع صوتي في المواقف العاطفية المؤثرة ، حتى وصلت الى الشطر الأخـــير الذي يقول :

« ووقعت كما يقع جسد ميت ! »

Twitter: @abdulllah1994

لفظت العبارة بفخامة والتفت إلى جبران لأتبين تاثير فراغي عليه فأذا هو محنيّ الرأس « مدبَّل » العينين . فلم اتمالك من الضحك بصوت عال مما اجفله في وضعه المسترخي شبه النائم وسألني بلهفة : لماذا اضحك ! قلت :

أنا بحاجة إلى الضحك ! فأردف على الفور :

— وأنا بحاجة إلى النوم ... ولم تعد تحرز « التسريبة » بأنام على هذا الديوان !

وخلع حذاءه ونزع المعطف وتمدّد .

كنا عائشين في باريس عيشة بسيطة . ففي احدى رسائل جبران اليّ من بوسطن يقول :

« كل مساء تعود نفسي إلى باريس وترفرف بين منازلها ... وفي كل صباح استيقظ مفكراً بتلك الأيام التي صرفناها بين هياكل الفن ومروج الاحلام » .

وكان أن نقلت الآنسة اولغا البيانو إلى محلي واتفقنا على ان اتركه تحت تصرفها بعد الظهر وسلمتها المفتاح ، فاطمأنت وانسجمت في جو الرسوم الفنية والكتب والزهور ، وانصرفَت إلى التمرّن على العزف برغبة . وكانت من حين إلى حين ، تدعونا أَنا وجبران لسماع ما يروق لنا من ألحان بيتهوفن وتشيكوفسكي . وكان « السموڤار » الروسي على الدوام

Twitter: @abdulllah1994

عامراً بالماء الحار للشاي ، فكنا نحضر معنا بعض الكعك والحلوى ونجلس نحتسي الشاي ونتحدث في شتى الموضوعات الموسيقية والفنية ، ولا شيء يعكر صفو صداقتنا .

وأذكر في تلك الآونة ، ان الآنسة اولغا أهدت كلاً منا قبعة روسية من المخمل الاسود المطرّز بالقصب ، كنا نتغاوى في لبسها عندما نسرح معاً في نزهاتنا الليلية ...

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

مطعم مدام بوده

أخبرتنا جورجيت وهي تقدم لنا طعام الغداء ، ان في نيتها ترك المطعم الصغير بجوار حديقة اللكسمبورغ . الى مطعم « مدام بوده » – بولڤار راسپاي عند قرنة شارع « ليوپولد روبرت » . تداولت مع جيران في الامر وقرّرأينا على ان هذا المطعم الاخير يوافقنا نحن ايضاً ، فهو في منتصف الطريق بين محلينا وقريب من المعاهد الفنية الحرة.

كنا في مستهل الضيف ، وقد صُفّت بعض الطاولات على الرصيف العريض امام المطعم ، تحيط بها الخضرة والزهر، فنجلس حولها وكأننا وسط حديقة .

ومطعم مدام بوده هذا كان اول مطعم في الحي اللاتيني مصمَّم حسب الزيّ الحديث . أي انه – فنياً – خرج عن مفهوم الزيّ الكلاسيكي الذي كان ما يزال شائعاً ، فخطوط البراويز الخشبية ومكتب المديرة والابواب والنوافذ – كلها بدلاً من ان تكون مستقيمة بسيطة ، اتخذت اشكالاً متعرجة تنتهي في شبه اوراق كبيرة وتزاويق غريبة ، من وحي الثورة الفنية ولا شك .

Twitter: @abdulllah1994

اما « زيّ » مدام بوده نفسها فلم تمسّه الثورة ... لقد حافظت على كلاسيكيتها ، نقية ، خاليـــة من كل شائبة ، واحتفظت ، وهي في الخمسين ، بهامة مليئة ضخمة ، ووجـه مستدير يحيط به شعر ابيض ممسّس الى الخلف ، وعينـــين حادتين كعيني نسر ، لا سيما عندما تحدّق إلى البعيد او عندما تشير باصبعها منبّهة إحدى الخادمات إلى امر ما .

كنا أنا وجبران عندما نمر بها ونسلّم باحترام ، تبتسم لنا بحنان أم ... ولا عجب فقد كنا من الروّاد المرموقين ، ففي حين كان الروّاد العاديون يدفعون « بخشيش » الخادمة خمسة سنتيمات كنا نحن ندفع عشرة . كان الخدم يهمسون فيما بينهم بأننا امراء من لبنان ، وتسارع جورجيت عندما تلمحنا الى حجز احسن طاولة وتلفت نظرنا إلى الاصناف الجيدة على قائمة الطعام وتميزنا في المعاملة عن جميع الزبائن ، فنطمئن إلى هذا الالتفات الخاص وإلى هـــذا التميز الذي يرفعنا عن سوانا . وكان ثمن وقعة الطعام في تلك الايام المباركة ، مهما عزّت وغلت لا يبلغ الفرنكين !

وهكذا كنا في مطعم مدام بوده مكرمين معززين ، نجلس كأمراء عن حق ونتجاذب الاحاديث والمناقشات كما يحلو لنا ، فنتطاول بجرأة إلى طرق وتحليل الآمال الكبار ، ونتطرّق إلى الجزئيات التافهة الصغيرة ، على السواء .

Twitter: @abdulllah1994

وأحياناً ، عندما لا نجد في نفسينا ميلاً إلى العمل في المعهد الفني ، ولا يكون جبران عـلى موعد كان يطيب لنا التنزه في بولفار مونپارناس ، نتمشى على الاقدام حتى نصل الى ذلك الركن ، حيث يقوم مقهى « الليلا ». هناك كنا نشرب فنجان قهوة متأملين باعجاب تمثال المارشال « ناي » شاهراً سيفه « الى الامام » ، وهو من صنع النحّات « رود » ، ثم نتقدم إلى حديقة « الاوبزرڤاتوار » ونتخطر حول البركة الجميلة رافعين انظارنا بدهشة الاطفال إلى تماثيل القارات الاربع صنـع النحّات « كارپو » ــ نساء اربع ، كل امرأة تمثـل احدى القارات الاربع بشكلها وملامحها ، وكلهن جميلات عاريات يحملن ، بحركات لطيفة ، الكرة الارضية إلى فوق .

رائعة فنية عن حق ! وحولها تتدفق الميـاه من كل صوب ... والاشجار الغضّة الدائمة الخضرة تظلّل جانبي الطريق الفسيح ... لا يرتفع ذوق على الذوق الفرنسي ! « نحن في باريس ! » كان جبران يهتف بن فرط غبطته .

اغمض عيني الآن وما اسرع ما تمتثل صورة جبران في خاطري : بابتسامته الحنونة ورنة صوته الدافئ وحركة يده المعبّرة ، واصابعه المتسائلة ابداً . كأني وإياه سائران في طريقنا إلى حديقة اللكسمبورغ ... نعرّج إلى الشمال ونجلس على السطح المشرف على القصر وعـلى قسم من الحديقة ... كأنني الآن اسمع صدى صوت جبران في اذني :

Twitter: @abdulllah1994

ـ نحن في باريس يا يوسف !. في هـذه الحديقة الغناء ، امامنا على هذه الطريق سارت اقـدام الكثيرين من العلماء العظـام والفنانين الكبار . أحس انفاس بوڤي دى شاڤان وكاريار وبلزاك والفرد دى موسّه وڤكتور هوغو وپاستور وكوري وتان ورينان ... يخيّـــل إليّ انني اتبين آثار اقدامهم على هذه الطريق !

ـ و « الملهات » ألا تتراءى لك اثار اقدامهن الطرية ؟ اقدام الآنسة اولغا مثلاً ؟

ويبتسم جبران ابتسامته الرقيقة ، ويغمض عينيه عني ، نصف إغماضة ، فاتركه مستغرقاً في التفكير بالرجال العظام ، وانصرف أنا إلى التفكير بالملهات !

وبعد صمت طويل يسألني جبران : مـا قولك بزيارة « الست جنڤياڤ » ما دمنا على مقربة منها ؟ من زمان لم أرها وأنا مشتاق إلى طلّتها .

وهكذا ، فلا نلبث ان نخرج من الحديقة ونمشي في اتجاه شارع « سوڤلو » حتى تلوح امام اعيننا الخطوط الفخمة لهيكل « البانطيون » الذي بناه المهندس « سوڤلو » قبيل الثورة ... الله ! كيف قام هيكل فوق هيكل وجثمت القبة فوق الهيكلين !

Twitter: @abdulllah1994

على اطلال كنيسة قديمة للقديسة جنڤياف أُقيم هذا المعبد لشفيعة الشعب الباريسي . وقد جُعل في ايام الثورة الكبرى ملجأ يأوي اليه اعاظم الرجال وسمي البانطيون وكتب على واجهته « يشكر الوطن رجاله العظام » ولما انتهت الثورة أعيد كنيسة . وارجعته مؤخراً الجمهورية الفرنسية مقراً للرجال العظام . وها نحن ندخله الآن وكأننا ندخل مقر العظمة والفخامة .

أول ما قصدنا صورة القديسة جنڤياف صنع المصور « پوڤي دى شاڤان » والتي كان جبران شديد الاعجاب بها . ها هي واقفة بقامتها الهيفاء ، على الشرفة امام غرفتها . على رأسها شال ابيض امسكت احد طرفيه باليد ، والقت اليد الثانية على الحائط . انها في ضوء القمر ساهرة يقظى ، على المدينة الراقدة وعلى سكانها ـ تحفة فنية خالدة !

هذه المرأة هدأت ، ذات يوم ، روع سكان باريس وهم يرتجفون هلعاً لاقتراب جنود البرابرة ـ جنود أتيلا ! الذي تمكن في اواسط القرن الخامس من التغلب على الأباطرة الرومانيين في الشرق والغرب . اكتسح البلدان وتركها خراباً ، واحتل فرنسا حتى ابواب باريس وقد قيل عنه : « لم يكن العشب ينبت حيث تمر اقدام خيله ! » واتجه نحو باريس واشرف على سورها . وها هي جنڤياف تلاقيه خارج السور وتقف في وجهه وتكلمه ... ماذا قالت له ؟ أية لغة

Twitter: @abdulllah1994

تكلمت ؟ كيف كانت رنة صوتها ؟ كيف كانت نظراتها ، حتى اقتنع أتيلا الهائل بتحويل رأس حصانه وبالابتعاد عن باريس ؟..

قال جبران بتأثر :

ـ هل من طمأنينة ارحب وأعمق مما على وجهها ؟

واكملت وأنا اهز رأسي موافقاً لا رافعاً نظري عن اللوحة :

ـ هكذا فليكن التصوير والا فلا !

رحنا بعد ذلك نتأمل صورة ثانية عـــلى طول الحائط تمثل موت القديسة وهي تبارك الحضور ، صنع ج. ب. لورنس هنا النوع الكلاسيكي بكل معنى الكلمة ! بارد ، يبعث على التثاؤب والنعاس ... بلا روح . وخطر لي قول مأثور : « الجمال الكامل لا يختص بمدرسة معينة ، هو شعور الفنان المخلص يتجلى ببساطة . انه السهل الممتنع ! »

قال جبران : أنا كما قلت لك مراراً يا يوسف ، لم اتذوق فن المعلم لورنس حتى انني كثيراً ما اشعر بمقته . اريد ان اكون حراً بنوعي الخاص ! قلت له : وأنا كذلك .

وسمعنا الدليل ينادي بأعلى صوته : باب الكهف مفتوح . من يرغب في زيارة الكهف ؟

Twitter: @abdulllah1994

نزلنا مع النازلين ، فوقف الدليل على مرتفع صغير واشار باصبعه إلى ضريح وقال بلهجة ببغائية عالية : « هنا يرقد ڤولتير : فيلسوف كبير . كاتب كبير . شاعر كبير .. » ثم اشار إلى ضريح ثان : « هنا يرقد جان جاك روسو ، كاتب كبير . مفكر كبير .. » وإلى ضريح آخر : « هنا يرقد ڤكتور هوغو شاعر كبير .. »

ضغط جبران على ذراعي وهمس في اذني : شبعت من الكبر ، وأفضل الآن النزهة على ضفاف النهر . أجبته : الحق معك وأنا ايضاً شبعت !.

وعلى مهل انسللنا من بين صفوف القافلة وصعدنا السلم وخرجنا وسرنا في بولڤار سان ميشال إلى جانب النهر ، وصرنا نستعرض الكتب في الواجهات ، والرسوم الفنية . وفيما نحن نازلان في بولڤار سان ميشال اخذ جبران يتحدث عن الكتّاب العظام والدور الذي يلعبونه في نهضات بلادهم إلى ان قال :

ـ كان ڤولتير وروسّو دماغ فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر ، فلا عجب ان يرقدا تحت قبة البانطيون . فسألته :

ـ ولكن هل تعلم ماذا كان يقول عنهما الملك لويس السادس عشر ؟

Twitter: @abdulllah1994

ـ هل تعني ذلك البوربوني الذي أوصله رجال الثورة الى المقصلة ؟

ـ نعم هو بعينه ! عندما كان في سجن الهيكل ، شاهد قرب قصر العدل بعض كتب ڤولتير وروسّو فابدى اشمئزازه بقوله : هذان الرجلان هدما فرنسا . لقد عنى الملكية البوربونية ، وقد هدماها بالفعل !

ـ نابوليون ايضاً كان يقول : لو سهر البوربون بعين يقظي على الحركة الادبية ونتاجها لما كان نجمهم أفل . ان روسّو وڤولتير لم يكونا عظيمين ، ولكن معاصريهما كانو صغاراً !

ـ هذا صحيح ! قال جبران ، ولكن مما لا ريب فيه ان للكتب تأثيرها في تكييف حياة الشعوب . والادباء والمفكرون يستحثون الشعب على التفكير . مع ڤولتير وروسّو ابتدأت فرنسا تفكر ـ حتى نابوليون لم يتمكن من منعها عن التفكير ... متى يا ترى تحدث هذه الاعجوبة في الشرق ؟ متى ومع من يبدأ الشرق يفكر ؟

ـ مع جبران !.. اجبته بحماسة وايمان ، لكن جبران حدق في وجهي وخيّل اليه انني انما اهزأ منه ، فرفع رأسه واكد بنبرة عالية :

Twitter: @abdulllah1994

ـ أجل مع جبران سيبدأ الشرق يفكر !.. فأكملت أنا :

ـ ويرفع له مواطنوه بإنطيوناً عالياً عالياً !

وكنا قد وصلنا إلى ضفاف السين حيث الكتب معروضة في الصناديق على طول الرصيف ...

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

الآنسة مارتين

لا أُريد ان يتبادر إلى الذهن بأنني كنت دائماً برفقة جبران أو هو برفقتي فكم من اسبوع أو اكثر انقضى دون ان يشاهد واحدنا الآخر ، حتى اذا التقينا بادرني جبران إلى السؤال : أين كنت محتجباً كل هذا الوقت ؟ كيف حال بنات الابرشية ؟

واجيبه على الفور : بألف خير يسألن خاطرك !

ومع ان نزهاتنا معاً كانت من امتع أوقاتنا في باريس، إلا انني كثيراً ما كنت اتنزّه وحدي الى جانب السين . وكان يطيب لي المرور في الدرب الضيقة خلف الاكاديمية الفرنسية ، واسير الهوينا في شارع « السين » حيث يخيم الهدوء بعيداً عن ضجيج العربات ... أو التطرّق إلى الشارع بجوار مسرح « الاوديون » حيث توجد مكتبة عصرية تحتوي على الكثير من المؤلفات ، وخاصة الجديد الجديد منها ... وبعد ان امكث برهة هناك اتفقدها عن كثب ، اتوجه نحو حديقة اللكسمبورغ ، متأبطاً اكثر من كتاب ، واجتاز

Twitter: @abdulllah1994

منعطفاتها الفسيحة منتهياً إلى حديقة « الاوبزرفاتوار » وفيفي طرفها الآخر البركة الجميلة !

هنالك لم اكن املكُ الوقوف والتأمل ... في الالعاريات الحسان ممثلات القارات الأربـــع ... وذات يوم ، فيما أنا شاخص اليها ساهٍ عما حولي ، سمعت صوتاً يخاطبني : :

ـ عجيب أمرك ! تلهيك جميلات النحاس عن جميلات اللحم والدم ؟ والتفت الى مصدر الصوت فاذا عـــلى مقربة مني حسان ثلاث يتضاحكن بغنج ، الآنسة مارتين ورفيقتاها . لا أدري للآن أيتهن الأجمل ! حتى انني هتفت (في قلبي) وأنا اردُّ تحيتهن : آه يا مار انطونيوس ! ما اكثر الملهيات !

كمّلت الرفيقتان نزهتهما وطلبت الآنسة مارتين إليَّ ان أجلس معها في قهوة « الليلا » القريبة ، لأن عندها ما تريد التحدث به إليَّ . طاوعتها فيما ارادت وقد فهمت للتونّ ما كان يشغل بالها . وفتحت أنا الحديث :

ـ أما زلتِ قلقة ، تودين معرفة ما اذا كان الله موجوداً أو غير موجود ؟

ـ هو كذلك يا سيدي .

ـ قلت لكِ انه موجود في كل مكان ، وان يكن غير منظور .

Twitter: @abdulllah1994

ـ شكراً يا سيدي . ولكن رجوتك قل لي من هو هذا البطل الواقف على القاعدة والشاهر سيفه هكذا ؟

ـ هو تمثال المارشال « ناي » . احد قواد نابوليون .

ـ ولماذا هو قائم ههنا ؟

ـ بعدما تنازل الامبراطور اول مرة عن العرش ، وعادت الملكية الى فرنسا ، أقسم ناي يمين الطاعة للملك ، ثم عاد الامبراطور فعاد ناي واخلص له ، ولما نُفي الامبراطور وعاد الملك الى العرش حكم على ناي بالاعدام.. وفي هذا المحل بالذات خرقت صدر الجندي الباسل رصاصات الجنود الجبناء .

ـ أمن عهد بعيد كان ذلك ؟

ـ من نحو مئة سنة .

وجلسنا حول طاولة صغيرة في ظل شجرة ، وطلبت فنجانَي قهوة مع كريما ، واستأنفت مارتين الحديث عن موضوعها الأول :

ـ اذا كان الله موجوداً ويحاسبنا في الآخرة على كل دقة قلب ورمشة عين ..!

ـ اطمئني ايتها الآنسة . ان الله كبير .. وهو سموح غفور .. وقلبه طيب .

Twitter: @abdulllah1994

ـ لا اخفي عليك يا سيدي انني ارغب في الزواج حسب الشرائع ، واكره ان اكون محظية .

ـ انتِ على صواب . لا تدعي شيئاً يؤثر على رأيك حتى ولو كان غير موجود .

ـ الدكتور ... كل ما يهمُّه « امرأة » ، بشرائع أو بغير شرائع .

ـ هي الموضة الآن ، عند الذين لا يعتقدون بوجوده ... وعند ضعيفي الايمان ايضاً . معظم الرجال اليوم الآنسة « انانيون ، كذابون ، متهتكون ، متعصبون ، جبناء ... » الى آخر معزوفة ڤولتير التي احفظها غيباً لأستعين بها عند الحاجة !

ـ صحيح !.. صحيح ! زفرت مارتين بتأثر عميق .

ـ أليس لكِ أهل أو أقارب يا آنسة ؟

ـ بلى . والدي مستخدم في محطة سكة الحديد بضواحي باريس ، يعطي الاشارة لوقوف القطار أو لتحركه . والدتي تطبخ له وتغسل ثيابه وتتخاصم واياه .. ثم تعود فتصالحه .. وطبعاً يتعانقان ! وحاصل هذا العناق دائماً أخ أو أخت . أنا ثالث اخوتي الثمانية . أخي الكبير في الخدمة العسكرية في الهند الصينية .

Twitter: @abdulllah1994

ـ اختصري القصة . ما هو عمرك . كيف عشتِ حتى الآن . وكيف عرفتِ الدكتور ؟

ـ أنا في الثانية والعشرين . مكثت ثلاث سنوات مع إحدى الأُسر أُرافق الأولاد واساعد الست . منذ بضعة اشهر كنت ذاهبة الى « البون مارشيه » لأشتري حاجة ، فابتدأ المطر ينهمر . وبينما أنا مهرولة تحت المطر اذا بيد تمتدُّ بمظلة فوق رأسي .

هكذا عرفت الدكتور كاسپار . ورافقني حتى مدخل المخزن ، فشكرته ودخلت . وكم كانت دهشتي عظيمة ، عندما خرجت ثانية فاذا هو ما يزال ينتظرني ! وفي الطريق سألني متى اكون حرة ؟ فأجبت : السبت . قال : سأنتظرك السبت بعد الظهر على مدخل حديقة اللكسمبورغ قرب المتحف .

أية حيرة تنازعتني ! وأي صراع طوال أيام الاسبوع . كنت اقسم بيني وبين نفسي واعاهدها بشدة بأني لن اذهب في الموعد . وكيف اذهب للقاء شاب لا اعرفه ؟ كلا . لن اذهب . ولكنني رغم ذلك ، وجدتني يوم السبت ألبس اجمل ثيابي واسارع للاجتماع به .

ـ ليس في القصة ما هو غير عادي . الشيء الذي يهمني معرفته هو سبب انشغال بالك وتساؤلك اذا كان الله موجوداً أو غير موجود ؟

Twitter: @abdulllah1994

ـ قلت لك ان غايتي من الحيـــاة ان اتزوج حسب الشرائع ، وان يكون لي زوج وأولاد مسيحيون . رأيت هذا الصباح عروساً ، يدها بيد عريسها خارجين من الكنيسة تطفح السعادة والحب من عيونها ... كم كانت جميلة بثوبها الساتاني الابيض وطرحتها الشفافة المترامية !. لقد بكيت من شدة التأثر .

... وبالفعل كرجت دموعها ! فاشفقت عليهـا ورحت اخفف عنها واشير عليها بالحسنى :

ـ اظن ان البون شاسع بينك وبين الدكتور . الأوفق ان تبحثي عن رجل من مستواك .

لكن بدا ان ملاحظتي لم ترق لها ، لأنها اجابت بحدة :

ـ اعرف فتاة فقيرة تزوجت رجلًا غنياً . كان يتودد لها ، ولما رأته متردداً في امر الزواج ، وخشيت ان يُفلِت من يدها ، استسلمت له ، فاضطر الى الزواج .

ـ قد يحدث ذلك انما ليست هذه هي القاعدة التي يحسن بك اتباعها . على الفتاة ان تبقى في احضان والديها ، تعاشر من يسمحان لها بمعاشرته وتسمع نصائحهما حتى يتم النصيب ويتقدم ابن الحلال .

ـ لكن الرجوع الان الى احضان والدي غير ممكن .

Twitter: @abdulllah1994

ـ ما عليك اذاً إلاّ ان تصلي . وتصلي بحرارة طالبةً مساعدته وتوجيهه لحل هذه المشكلة . لأن الله ، رغم انشغاله بالكون ، اذا صلّيت له بحرارة وايمان ، مهتمٌ ولا شك ، بباريسية مثلك حسناء ! واضفت سائلًا :

ـ هل يحبك الدكتور ؟

ـ لا ادري !

ـ وهل انت تحبينه ؟

ـ ايضاً لا ادري !

ـ آسف . لقد حان وقت الشغل في المعهد الفني .

ـ سارافقك إلى قرب مقهى الدوم .

في الطريق ، وبعد سكوت قصير طلبت مني بتوسّل ان اساعدها :

ـ الدكتور يقول انك اعز اصحابه . الله يكافيك . الله يوفقك !

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

آراء الدكتور كسپار

دخل الدكتور كسپار ذات ظهيرة إلى مطعم بوده وبدأ يبحث عن طاولة . ولما رآنا أنا وجبران جالسين نتغدى ، حيي من بعيد ، فدعوناه للجلوس معنا وأفسحنا له مكاناً ، وبعد ان اتى على ما احضرته له جورجيت من الوان الطعام ، دار بينه وبين جبران جدل علمي فلسفي .

اذكر كيف كان الدكتور يتكلم بحجة واقتناع عن آخر التطورات العلمية في حقل الطب وعلم الفلك ، وكيف راح يستعرض الحركة العلمية من قديم الزمان حتى آخر القرن الثامن عشر الذي انتهى بثورة مادية هائلة ، وروحية اشدّ هولاً . وذكر جواب العالِم « لاپلاس » على سؤال وجهه اليه القنصل الاول « بوناپرت » ، وكان العالِم قد اهداه كتابه عن نظريته في علم الفلك . سأله بوناپرت بعد ان هنأه على مؤلفه النفيس :

ـ لقد ذكر « نيوتن » الله في كتابه مرات عدة ، ولكنك لم تذكره في كتابك مرة واحدة ؟

Twitter: @abdulllah1994

ـ لانني لم اكن بحاجة إلى هذا الوهم ، اجاب لابلاس !

ـ الوهم ؟ اعترض جبران بقوة ، وحاول ان يقدم براهين فلسفية :

ـ لا شيء يأتي من لا شيء . فيقاطعه الدكتور :

ـ تعليل لا طائل تحته يا صديقي . كلمة خالية من المعنى طالما في قدرة العلم ان يفسّر ويبرهن كل شيء . انا لا اطأطئ رأسي إلاّ للعلم !

ويثور جبران بغضب :

ـ عقل الانسان محدود .

فيرتفع صوت الدكتور عالياً :

ـ انتم الشرقيين أورثتم العالم هذه المعتقدات التي تضلّل العقول السليمة . ثم التفت إليّ وكلمني بلهجة ذات معنى :

ـ وانت ضللت عقل مارتين بقولك لها : « إن الله موجود ».

فدافعت عن نفسي مازحاً :

ـ بل أنت الذي ضللت عقل المسكينة بقولك انه غير موجود ! مارتين تريد ان تتزوج حسب الشرائع الدينية . وانت كافر متهتك لا تهمك الشرائع .

Twitter: @abdulllah1994

رفع الدكتور قبضته في وجهي مهدّداً ضاحكاً وقد اسقط في يده :

ـ انتم الشرقيين !

فجاريته فيما فعل ورفعت يدي أعلى من يده وقلت :

ـ انتم الغربيين !

وضحكنا جميعاً . وقال جبران بلهجته الكلاسيكية الرصينة :

ـ اعقلوا يا اخوان بلا حركات صبيانية ...

وفيما نحن نهرج ونضحك جاءت جورجيت بصحن الفاكهة وابتسمت لمشهدنا قائلة :

ـ شيء يفرّح القلب ! دم الشباب حامٍ في عروقكم . غيركم نعسان ، وحردان أو ربما حزنان كأنه محكوم بالأشغال الشاقة !

وبعد الغداء دعانا صديقنا الدكتور إلى زيارة معهد « پاستور » حيث يتابع ابحاثه العلمية عن طبيعة المكروبات ، فرحبنا بالدعوة ورافقناه بسرور لأننا من زمان كنا نتوق إلى هذه الزيارة .

ليس معهد پاستور للحظة الأولى ، في عين الزائر ، سوى مدينة في قلب مدينة . هنا مملكة الدكتور يتحرك فيها بسهولة ويتكلم بنبض قوي كالآمر الناهي . لا جبران يعارضه ، ولا أنا ، بكلمة واحدة :

Twitter: @abdulllah1994

ـ هذه الحيوانات : الخيـــل والبقر والأرانب والدجاج والفيران ـ كلها في عهدتنا ، نجري عليها التجارب والاختبارات .

وقال جبران :

ـ الدنيا حظوظ . ما همُّ هذه البهائم ، آكلة شاربة ؟ هل يدور في خلدها يا ترى انها تؤدي للانسانية خدمات لا تثمن ؟

فأكمل الدكتور :

ـ هنا المكتبة . وهذه النشرات الطبية والتقارير العلمية بجميع اللغات تصلنا من كل جهات العالم ما عـدا الشرق . الشرق يجهل حتى وجودنا .

وبشيء من السخرية أضاف : هل يوجد اطباء في بلادكم ؟

فاعترضت بنزق :

ـ جدودنا اخترعوا الطب ، في قديم الزمان .

ـ جدودنا . جدودنا ... وانتم ؟ نريد ان نعرف انتم ماذا اخترعتم وماذا عندكم ؟

وعاد الى لهجته الأولى مكملاً :

ـ وهذه الزجاجات ليست سوى مستودعات المكروبات. ندرس طبائعها ، نموّها وحياتها . ونبحث لها عن دواء يقضي عليها . هذا هو مكروب الطاعون ، والسِفليس ، والسِلّ وسواها وهنا صور المكروبات مكبّرة . هي على اشكال

Twitter: @abdulllah1994

واشكال كما تَرَيان . تدخل جسم الانسان كلٌ بطريقتها الخاصة ، وتجري مع الدم في عروقه ، ونحاول نحن بدراساتنا وتجاربنا واختباراتنا التسلّط عليها وقهرها ، بعد ان فتح امامنا الطريق پاستور وكوخ وغيرهما .

استمرّ شرح الدكتور على هذا النحو ساعة كاملة ، اطلعنا خلالها على اشياء كثيرة طريفة ومفيدة ، وعند الباب فيما كنا نشكره ونودعه ، اقتربتُ منه وهمست في اذنه سائلًا بلهجة جدية :

ـ والمظلة التي ترفعها فوق رؤوس البنات لما ينزل المطر ؟

فرفع قبضته في وجهي مهوّلاً واجاب وهو يضحك :

ـ سأهديك واحدة مثلها اذا شئت !

ـ شكراً جزيلًا !

... وفي الشارع ، ما أن غِبنا عن انظار الدكتور ، حتى سألني جبران :

ـ ما هي قصة المظلة التي تضاحكتما حولها ، دوني ، انت والدكتور ؟

ـ هي مصلاية لصيد البنات ؟

ـ ماذا ؟ مصلاية لصيد البنات ؟ ما افضى بالك يا يوسف !

Twitter: @abdulllah1994

أهذا كل ما استفدته من محاضرة الدكتور ؟ ألم تلاحظ ان عالم «العِلم» يعلو ويتفوّق على عالم «الادب والفن ؟»

واستعدت لهجتي الجدية لأقول له :

ـ عوالم العِلم والأدب والفن هي اساسات التمدّن الانساني . انها متشابكة تسند بعضها البعض وتكمل بعضها البعض . والسِرّ كله في ان يتقن المرء عمله .

ـ نعم ، قال جبران ، الرجل الاوربي يتقن عمله . عبارة «شو بيسايل» غير معروفة عنده ! صديقنا الدكتور مثلاً يتقن عمله ويعنى بالنظريات العلمية . اما افكاره ومبادئه الثورية ففيها ما فيها . ورغم هذا يطيب لي كثيراً سماع احاديثه . فيها حياة ـ حيوية متقدة كالنار !

ـ اجل ! كل احاديثه حياة . لم اسمع في حياتي من يحسن التكلم مثله .

وبعد لحظة اضفت :

ـ قلت لك مراراً يا جبران ان مقهى الدوم هو «اكاديمية شعبية» لفهم الكون والحياة .. وانت لا يروق لك هذا الجوّ !

ـ سيئاته اكثر من حسناته .

ـ يكاد لا يطاق ... لولا سوسان وليا !

Twitter: @abdulllah1994

وهنا اقتربنا من مدخل محلي فتناهت إلى اسماعنا من الداخل الحان موسيقية .

فقال جبران

ـ اسمعت ؟ هي الآنسة اولغا تتمرن على البيانو ! كدت انسى اننا معها على موعد لتسمعنا بعض المقطوعات .

ـ أنا لم انسَ ، والبرهان انني احضرت ، من محل بوشني بعض الحلوى كما اتفقنا .

بعد السلام بادرتنا الآنسة اولغا إلى القول :

ـ قبل التمتع بالشاي والحلوى اسمعا هذه الصوناته لبيتهوفن. كنت اثناء تمرني على عزفها افكر ببعض الاصحاب ، ذوي المنزلة الخاصة ـ وها هم معي بلحمهم ودمهم !

فاجبتها :

ـ وعقلهم وقلبهم وسمعهم ...

وجلسنا على الديوان في شبه ظلمة دافئة حالمة ... نصغي الى النغمات العذاب تتصاعد من تحت الانامل الرشيقة البيضاء ... وقد اتكأنا ، مغمضي العيون في خشوع ، وأسند جبران رأسه بكفه ، واستسلمنا الى احلامنا وخيالاتنا .

Twitter: @abdulllah1994

وكان يتراءى لعين بصيرتي كأن خيالات رسوم ميكال انجلو تتحرك وتتصارع على السقف ، ثم تهبط وتصعد ... وارواح المعذبين في جحيم « دانتي » تتلوى وتغوص في النار، وربات ربيع بوتشللي ترقص على الخضرة النضرة والزهر ..

ـ وانت يا جبران بماذا تحلم ؟

ـ أنا سكران يا يوسف . تتراءى لي جبال الأرز ... والوادي المقدس ... والزوبعة ايام الشتاء ... وازهار الربيع العطر ... آه ! اين لي مَنْ يحملني ، كما على بساط الريح ، الى بشرّي ؟

هكذا كنا نعبّر عن شعورنا بحرية وبساطة ونحن نستمع الى صوناته بيتهوفن .

وفي غمرة استغراقنا . اذا باولغا تقول :

ـ واسمعا الآن هذه السمفونية وهي الاخيرة .

أحقاً هي الاخيرة ؟ سألتها مازحاً ، وسؤال كهذا لا يصدر ابداً عن جبران !

ونهضنا نعبُّ اكواب الشاي ونتبادل الاحاديث على الصعيد الفكري العالي . ونتناوب الكلام على النحو التالي :

ـ مَنْ لا يتذوق الموسيقى لا ذوق له .

Twitter: @abdulllah1994

ـ لكي نتمكن من تفهم « السمفونية » يلزم سماعها مرات عديدة ، تماماً كضرورة قراءة القصيدة أو القطعة الادبية عدة مرات قبل فهمها جيداً .

ـ كان الاقدمون في البلاد اليونانية يبدأون تثقيف اولادهم بتعليمهم الموسيقى قبل سائر العلوم ، لأنها ، على زعمهم ، تهذب الاخلاق وتعلم النظافة والترتيب .

ـ دخل الملك فيليبس المكدوني يوماً إلى القاعة حيث كان ابنه الاسكندر يعزف على القيثارة فاعجب بمهارته لكنه خاطبه بلهجة التأنيب والعتب قائلاً : ألا تخجل من ان تعزف بهذه المهارة ؟ ولعله كان يخشى انصراف ولي عهده الى الموسيقى على حساب اهتمامه بصناعة الملك وفلسفة معلمه ارسطو ، وما يكتنف هذين الموضوعين من اسرار وما يتطلبانه من سعي في التحصيل ومثابرة .

كان هذا الحوار حتى الآن يدور بين اولغا وجبران . وجاء دوري فقلت :

ـ برأيي ، ان الفن ، كالفلسفة ، يساعد على تحرير الفكر والعقل والروح .

وطلبت اولغا الاستفاضة في شرح ما عنيت فاردفت :

ـ ان بدائع النحت والتصوير والموسيقى ، كبدائع الادب ،

Twitter: @abdulllah1994

تغذي شعورنا ، وتكوّن رؤانا الخاصة ونظرتنا بالذات الى هذا الكون والى الحياة ، تدفعنا الى التفكير والى العمل ، وتبعدنا عن مراتب الحيوان السفلى ... وتدنينا من مراتب الالهة ... مسكين مَنْ لا تحلّ عليه نعمة الفن والفلسفة ، لأن حاله كحال كسيح ، عبثاً يحاول النهوض والجري مع الخلائق البشرية .

كنت اتكلم باندفاع وحماسة ، انقل الطرف بين عيني اولغا وعيني جبران ، ويزيد في اجادتي ما المسه على ملامحها من دلائل الاستحسان والتحبيذ لما يسمعون مني ، واسترسل في الكلام دون توقف :

ـ اذا جاز لي ان ألخص « التمدن الانساني » بكلمات لقلت : هو تمثال وصورة ولحن وقصيدة . من خلال هذه البدائع نتبيّن القوى التي تدير الكون ، وتتكشف لنا مفاهيم الامور ، ومعاني الحوادث : حياة الرعيان في العصر الحجري ، شعوذة السحرة ، قساوة ملوك آشور ، وعمق الشعور الديني عند قدماء المصريين ، واللطافة والذكاء عند اليونان ، وعند الطليان في عهد النهضة ...

وفي هذا الزمان ؟ قاطعتني اولغا .

ـ هذا الزمان يختبط في الفوضى ، وفي محاولات جنونية لا طائل تحتها .

Twitter: @abdulllah1994

والتفتت اولغا الى جبران وحوّلت الحديث الى الانكليزية كانما ارادت ، لغاية في ضميرها ، ان تقصيني عن مشاركتها ، ثم نهضت تلملم شالها واشياءها وتتأهب للذهـــاب . فقال لي جبران بالعربية وبصوت خفيض :

ــ من أين لك كل هذه الفصاحة يا شيطان ! أيكون كل هذا التحليق والتجلي من وحيها واكراماً لها ؟

ــ او لا تستحق اكثر من ذلك ؟

ــ اخبرتني انها معجبة بك !

هكذا كانت احاديثنا تدور وتدور ضمن اطـــار في فكري ، في حين تختنق العواطف الجميلة محبوسة مع الدم في العروق . كالجراثيم الفتاكة التي تعمل في الخفاء ولا يسمع لها صوت !

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

الآنسة روزينه

دخلت على جبران فوجدته جالساً كعادته ، امامه على الطاولة فنجان القهوة والسيكارة الدائمة الاشتعال يصّاعد دخانها متعرّجاً كسولاً ، حتى يتلاشى في فضاء الغرفة . وبين اصابعه القلم ، يكتب ويمحو ثم يكتب ... ويمحو ... والتفت إليّ بعينين حالمتين وكأنه انفرج لحضوري وراح يترنم :

ـ « أجبران ما هذا السكوت وما الذي دهاك فاهملتَ المحابرَ والكتبا ؟ » واردف وعلى شفتيه ابتسامة الرضى ممزوجاً بالقلق :

ـ هذا ما كتبه لي شاعر مصري لا عهد لي بمعرفته . الناس يا يوسف يطالبونني ويلحّون عليّ بأن اسمعهم شيئاً جديداً . ولديّ لو علمت الكنوز الثمينة . ويا حبذا لو كانت الكلمات تنقاد لارادتي ... انظر !

وناولني ورقة غطت وجهها من اعلاها الى اسفلها كتابات مرّت عليها الممحاة مراً عصبياً سريعاً ، سلمت منها هنا وهنالك عبارات مبتورة : « لما بلغت سنّ الرشد .. في سن

Twitter: @abdulllah1994

العشرين ... عندما فتحت عيني للنور .. »

واحتوته عيناي : فناناً ، شاعراً ، بعيد الطموح ، قصير اليد ، بَرماً بحاله ، ساخطاً على دنياه .

ـ هوّن عليك يا جبران وخفف عنك بعض هذه الهموم ، من قال لك ان الاصلاح لا يكون بغـــير الكتابة ؟ من قال ان الفن ليس عاملاً اقوى من الكلام ؟ وكم هو أسلم يا جبران لو امسكنا باليد بطيخة واحدة فقط !

وبعد لحظة اضفت :

ـ قم بنا . لديّ مفاجأة سارة . دقائق وتكون هنا احدى ربّات « بوتشللي » ـ فتاة ايطالية ساذجة التقيتها مساء أمس في المعهد الفني . انهـــا رائعة يا جبران . ستعجبك حتماً . أين الألوان ؟

وفي غمرة تأهُّبنا لاستقبال الضيفة الجديدة سُمع نقر خفيف عـلى الباب ودخلت « مادونّا » ترتدي فستاناً اخضر دافئاً وعـلى رأسها شال احمر ، وكانت تحمل بيدها ورقتي وعليها عنوان جبران . وتوليت أنا مهمّة التعريف :

ـ هذا هو السيد جبران ... وهذه هي الآنسة ...

ـ روزينا .

ورفعت روزينا الشال عن رأسها ، فاشرق شعر مُنسدل ،

Twitter: @abdulllah1994

بلون الذهب المحروق ... شهقت عينا جبران وهمس بالعربية مأخوذاً :

ـ لم تر عيناي بعد اجمل من هذا الشعر !

ـ وسترى عيناك الآن اجمل جسم امرأة .

وكلمت الفتاة بالايطالية :

ـ روزينا ، انزعي ثيابك .

وبكل بساطة واطمئنان نزعت روزينا ثيابها والتفتت الينا بسؤال واحد تعرفه جيداً :

ـ أي جلسة تريدان ان اجلس ؟

وفكر جبران ملياً قبل ان يجيب :

ـ كأنك سابحة في الفضاء ايتها الآنسة ... محمولة على اذرع الملائكة ... الى السماء !

وأشار الى طاولة فرشت عليها سجادة وبضع مخدات ، فاستلقت روزينا على ظهرها ورفعت قليلًا جنبها الأيسر وذراعها الأيمن وصار جبران يسندها بالمخدات ويتمتم بالعربية :

ـ هؤلاء هم الملائكة ... آه يا ليتني واحد منهم ... واضاف بالفرنسية : هل انت مرتاحة هكذا ايتها الآنسة ؟

ـ شكراً !

Twitter: @abdulllah1994

وسألتني بالايطالية : أي لغة يتكلم صاحبك ؟ فأجبتها : باللبنانية ، ولكنها حسبتها لغة يابانية فسألت :

– وهل انتم يابانيون ؟

– نعم !

هنا انتهت مرحلة التعارف والمقدمات ولم نلبث ان استغرقنا أنا وجبران في رسم جسم الصبية الجميلة محمولة على اذرع الملائكة ، وجبران تارة يفكر بصوت عالٍ وطوراً « يرندح » : « أجبران ما هذا السكوت .. » وروزينا تنظر آناً إلى وجهي وآناً إلى وجه جبران ، حتى دبّ في اجفانها النعاس فأحنت رأسها قليلًا وتهدّلت خصلات من شعرها على كتفيها في مشهد لا اجمل ولا اروع !

وخيم علينا جوّ من الصمت الرهيب ، امام هذا الجمال الطاهر البتول – وكسرعة البرق انتهت الثلاثة ارباع الساعة المقررة للعمل وحان وقت الراحة ، فسأل جبران روزينا اذا كانت تريد ان ترتاح ، فأجابت بكسل دون ان تفتح عينيها :

– وهل هناك راحة اكثر من هذه الراحة ؟ استمرا في الشغل .

وزاغت الريشتان من جديد في شفافية الألوان وزهوها ،

Twitter: @abdulllah1994

تستلهمان الحسن العاري في الهنيهات الالهية الصافية . وسألني جبران ممعناً في التفكير ، لا محيداً نظره عن الجسد الوديع المستكين !

ـ آه ! لو اطاعت اصابعي دماغي وشعوري لكان جبران يأتي بالأعاجيب ! ماذا تعرف يا يوسف عن هذه البنيّة ؟

ـ لقيتها البارحة في الاكاديمية فاعجبني جسمها . وعند نهاية الجلسة تقدم منها بعض الفنانين يسألونها اذا كانت حرة في الغد فكانت تومئ برأسها بالنفي وكنت أنا قد عرفت انها ايطالية فاقتربت بدوري منها ووضعت في يدها فرنكاً وسألتها بلغتها اذا كانت حرة ، فأبرقت عيناها واجابت : يوماً واحداً فقط . ولعلها ارادت ان تجرّب ! فكتبتُ لها عنوانك .

وبعد قليل قال جبران بنبرته العميقة :

ـ من يعلم لعل هذه الفتاة بحاجة إلى مساعدتنا وحمايتنا. باريس محفوفة بالمخاطر لا سيما للنِعاج ...

وكان جبران في تلك المرحلة من حياته تحت تأثير حالة نفسية معينة كنت اسميها « فرنسيسكانية » كل همه اصلاح الكون وحماية الضعيف والتعبير عن مطلق الانسانية والشهامة والنخوة ...

Twitter: @abdulllah1994

وانتهت الجلسة ، ودفع جبران لروزينا فرنكين ونصفاً .. فقد اعتدنا ان ندفع الأجرة دورياً وكان ذلك اليوم دوره !

... وبينما الآنسة روزينا ترتدي ثيابها ، لاحظ جبران ان الصليب المعدني الصغير في عنقها معلق بخيط ! والحذاء الاسود « الفلاحي » الغليظ لا ينسجم والقدمين البضتين ، فهمس لي : « شوفهـــا .. فقيرة ! » ثم سألها بأدب عما اذا كانت حرّة في الاسبوع القادم فترددت في الجواب .

وتعالى قرع على الباب فالتفت جبران إليّ قائلًا :

ـ انت تفهم لغتها . دبّر المسألة بمعرفتك . يلزمنا اربع أو خمس جلسات .

وتوجه نحو الباب ليفتحه ، ثم عاد متأبطاً ذراع السيدة هاملتون التي حدّجت روزينا بنظرة فاحصة من فوق الى تحت ، وروزينا حدّجتها من تحت الى فوق . والتهت السيدة الاميركية في التحدث إلى جبران بالانكليزية ، وحيّت روزينا وانصرفت دون ان تجيب ان كانت حرة ...

وكانت هذه الكاتبة المشهورة قد جاءت تدعونا الى الغداء والى حفلة تقام بعد الظهر ، ربما حضرها المعلم رودان . ولما كنت اجهـــل الانكليزية ولا اتذوّق المجتمع الاميركي ، وكذلك لا يهمني التعرف على رودان ، فقد اعتذرت عن قبول

Twitter: @abdulllah1994

الدعوة وتوجّهت نحو الباب . فقال لي جبران مودعاً :

ـ سأكون عندك حوالي الساعة الخامسة . سلم عـــلى الآنسة اولغا ...

بعد خطوات عـــلى « بولڤار راسپاي » شاهدت روزينا سائرة في الطريق نفسها ، ولاحظتها تتمهّل قليلًا امام مخزن للاحذية ثم تقترب من امرأة عجوز جالسة على مقعد بجانب الطريق وتضع حسنَة في يدها ، ويمر بها شاب يهمس شيئاً في اذنها فتنفر منه وتسرع الخطى حتى المفرق . وكنت في هذه الاثناء قد وصلت الى قربها وخاطبتها بالإيطالية :

ـ إلى أين انت ذاهبة ، هاتي يدك لأساعدك على المرور.

فأجفلت أول الامر ، ولما عرفتني اطمأنت إليّ واعطتني يدها ببساطة قائلة :

ـ أنا ذاهبة إلى قرب حديقة « مونسوري » ، نصف ساعة على الاقدام ، « يا دِلّي » . وانتَ الى أين ذاهب ؟

ـ إلى مطعم مدام « بوده » هناك في زاوية الشارع .. ثم سألتها :

ـ هل ينتظركِ احد ؟

ـ كلا ..

Twitter: @abdulllah1994

ـ وهل تقبلين عزيمتي ؟

ـ بكل سرور . أنا ميتة من الجوع !

وعلى المائدة انفرط عقد لسانها ، فسردت لي حكايتها . وأخبرتني ان عائلتها تسكن قرية « انطيكولي » في ايطاليا وانها بدأت حياتها العملية ، بالذهاب إلى روما في الشتاء لتجلس امام الفنانين . ثم قيل لها ان مجال العمل في باريس اوسع فجاءت مع اخوتها الثلاثة ، وهم صُنّاع بناء . وهنا غصّت في الكلام وهي تقول :

ليتني لم آتِ إلى باريس ! أنا غريبة فيها ، لا أم ولا أخت ولا ...

ـ واخوتك ؟

ـ اخوتي دائماً في شغلهم . ثم انهم قساة عليّ لا يفهمونني ويأخذون مني كل ما اربح !

وكرجت دموعها على خديها .

ـ وهل يتيسَّر لك الشغل دائماً والباريسيات كثيرات ؟

ـ لم ألاق أية صعوبة ... فأنا كلما جلست في المعهد ويعرَض عليّ شغل كثير . لكنني لا أوافق إلا اذا أعجبني رأس الفنان !

واردتُ ان اخفف من كآبتها فسألتها مبتسماً :

Twitter: @abdulllah1994

ـ وكيف وجدتِ رأسي ورأس جبران ؟

لكنها لم تجب على سؤالي البارد واسترسلت مكملة حديثها :

ـ وحينما لا أجد شغلًا ، فان باب العجوز الساخر « السّاتير » دائماً مفتوح !

ـ العجوز السّاتير ؟

ـ نعم . المعلم « رودان » !!

فشهقتُ لدى سماعي الاسم وقلت لروزينا منبّهاً بلطف:

ـ المعلم رودان هو شيخ الفنانين ايتها الآنسة . لماذا تلقبينه « بالسّاتير » ؟!

فابتسمت واجابت :

ـ عندما ذهبت لمحترفه أول مرة مع رفيقة لي اقترب مني وتلمّس كتفي وصدري وسألني وهو يحك ، بذقنه ، « كالساتير » اذا كنت لا ازال عذراء ! فتلقيت السؤال كإهانة ، وهممت بالهرب ... لكنه حال دون ذلك وهو يضحك دائماً « بذقنه » !

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك ، كان في محترفه ثلاث عاريات يلعبن ويضحكن .

واضافت قائلة :

Twitter: @abdulllah1994

ـ اعملا مثلهن قال لنا المعلم رودان ، وكُلا الشكولاته ما طاب لكما ! وأرانا عـــلى الطاولة علبة من الشكولاته الفاخرة ، وجلس يرسم ونحن نلعب ونأكل شكولاته ، غير عارفات اياً منا يرسم ! وكان من حين إلى آخر يناديا بان نتحرّك ، ولا نبقى جامدات ..

فقلت لروزينا :

ـ الفنان دائماً بحاجة إلى مشاهدة اجسام عارية تتحرك . وهذه الرسوم يا آنستي يتسابق هواة الفن على ابتياعها بأثمان عالية ، وقد بدأت تحتل الصدارة في المتاحف !

فهزّت روزينا كتفيها بعدم اكتراث واكملت حديثها بلهجة أقل حماسة :

ـ وقد جاءته « واحدة » كالتي جاءت صاحبك . على رأسها قبعة كبيرة عليها زهور وعصفور ، وتلبس فسطاناً طويلاً رافعة أذياله بيدها ، وحذاء ذا كعب عالٍ ، وتكلمت بلغة لا افهمها وللحال قام رودان يدفع لكل واحدة منا خمس فرنكات ، إيذاناً بانتهاء مهمتنا ...

فقلت لها :

ـ رودان فنان كبير وغني؛ اشغاله تدرّ عليه الكثير من المال .

ولكي اغير الحديث سألت روزينا اذا كانت تجيد الرقص والغناء . فالتمعت عيناها واجابت بفرح طفوليّ ساذج :

Twitter: @abdulllah1994

ـ لقد باشرت تعلّم الرقص الايقاعي أنا وصديقتي مرغريت مع تلميذات « ايزدوره » لعلنا بذلك نتمكن من الوصول إلى المسرح .

وخطر لي خاطر عرضته على روزينا قبلت به على الفور. وتم الاتفاق على ان تجيء مع صديقتها مرغريت الى محلي عند الساعة الخامسة وتجلبا معهما ثياب الرقص . وكتبتُ لها العنوان .

مرّ على ذلك العهد ٤٨ سنة ، وما يزال من اجمل ذكرياتي الباريسية ، تلك الاويقات الحلوة التي كان الحظ والالهة يهيئانها لنا ويسمحان لنا بأن نحياها . كنت أجلس مع جبران على مقعد وثير نحتسي الشاي في شبه ظلمة دافئة ، ونجلس اولغا على البيانو تحت النور الباهت وقد تدلى عن كتفيها الشال الرمادي اللون المقصّب الحواشي ، يرفّ كالفراشات مع ارتعاش الانغام تحت انامله الرشيقة ...

وعلى وقع الموسيقى رقصت روزينا مع مرغريت ، وتهادت اجسادهما المرمرية كعواميد الاكربول ، تارة في ثياب يونانية قديمة ، وطوراً في ملاءة شفافة غنوج ، تضفي على الجمال النابض مسحة مقدسة ، كنت وصديقي جبران نستغرق حيالها في تأمل وخشوع ... وانتشاء !

Twitter: @abdulllah1994

.. حاولت ، بعد انتهاء حفلة « الموسيقى والرقص » ان ادفع فرنكين لكل من روزينا ومرغريت ، لكن روزينا ـ الناطقة بلسانهما ـ تمنّعت باباء معترضة بتأكيد :

ـ انت لست رودان !

ـ كلا ويا للأسف !

وأضافت وهي تهزُّ يدي مودّعة باشّة :

ـ أنا حرة الاسبوع القادم . ويمكنني الجلوس صباح الاثنين.

Twitter: @abdulllah1994

مرض جبران

في الطريق الى مطعم « بوده » بدا جبران شاحباً وأشبه بالكئيب . ولما استفهمت منه عن السبب قال :

ــ اتعلم يا يوسف ، لم يحضر رودان حفلة بعد الظهر ... وأنا لست على ما يرام . اشعر بألم في حلقي ، ربما لأنني تكلمت كثيراً . ولا شهية لي على الاكل . وامامي في صباح غد موعد مع مخرج سينمائي ولا طاقة لي على محادثته وأنا كما ترى .

ولما بلغنا المطعم ودّعني جبران معتذراً واستمرّ في سيره ، يستعين بالتعكيز على عصا لم تكن ، ابداً ، تفارقه .

وأول دخولي إلى المطعم طالعني وجه صاحبي « كالمي » الذي كان ينتظرني وهلل واقفاً لمرآي وبادرني على الفور :

ــ نيتك حسنة يا صديقي . لقدتوفقت في بيع اللوحة . هاك الخمسمئة فرنك . « الكوبيسم » عليه طلب . ولو كنت مكانك لعجلت برسم غيرها ، ولجعلتها « كوبسمية » على قدر ما يمكن !

Twitter: @abdulllah1994

فرحت بالخمسمئة فرنك ، رغم كرهي لهذا اللون من الفن. واطعت صاحبي كالمي وقضيت طوال نهار الأحـــد ارسم خطوطاً « مشربكة » واشكالاً غريبة وألواناً متعاكسة في مجموعة منسقة ، حتى خيّل إليّ انني نجحت ، وجلست في انتظار كالمي ، اطالع في كتاب عن « اصول المسيحية » لرنان.

وفي غمرة استغراقي بمطالعة رسائل مـــار بولس جاءني الحوذي الذي كان جبران يستخدمه عادة لبعض حاجاتـه ، يستدعيني بسرعة ، لأن جبران مريض ! وكان الليل قد بدأ يخيم على باريس . فتركت لكالمي كلمة على الباب ، واسرعت لعند جبران فاذا هو ملقى بكامل ثيابه على الديوان ، مغمض العينين من شدة الألم . فقمت للحال اضيء قنديل الغـاز ، وأحسّ جبران بحركة ففتح عينيه بجهد ولما رآني تمتم بصوت مخنوق :

ـ جئت يا يوسف . دخيلك لا تتركني وحدي . راح اختنق راح اموت !

وبأنين اشبه بالبكاء اردف :

ـ يا أمي يا أمي !

وخفّت الخادم على صوت الأنين ، حاملة صحن حساء ساخن وقالت لي بلهفة :

ـ مسيو جبران لم يأكل شيئاً طوال النهار .

Twitter: @abdulllah1994

وعبثاً حاولت اقناع جبران بضرورة الأكل ولو بضع ملاعق حساء ساخن ولكنه اصرّ على الاشاحة بوجهه واطباق فمه مرسلًا انيناً متواصلًا ومغمغماً هذياناً مبهماً انقبضت له نفسي وطفرت الدموع من عيني وحرت في امري لا عارفاً ماذا افعل ، وشعرت بوحشة الغربة !

وانقذني في هذه اللحظة دخول كالمي وكأنه هبط من السماء ! ولما وقف على الأمر قال لي بدون تردد :

ـ أراك يا صديقي لا تحسن التصرّف في مثل هـذه الامور . ماذا ؟ أأنت دامع العين ؟ الطبيب الطبيب ! أنا ذاهب في الحال لاستحضار الطبيب .

وتوارى في هرولة ، ليعود بعد عشر دقائق خلتها دهراً وبرفقته شاب ، سارع إلى جسّ نبض جبران وفحص الحلق . ثم قال بنبرة واثقة :

ـ آنجين حاد !

واخرج من حقيبة يده بعض اقراص ذوّبها في الماء وصار يدفعها دفعاً بملعقة صغيرة إلى فم جبران ، ثم اسند رأسه بلطف إلى الخلف وحرّك الملعقة الصغيرة داخل حلقه فانتفض جبران « وجَعَر » ، واخذته نوبة من السعال صار معها يقذف من فمه الجراحة والدم ، حتى خيّل إليّ انه ارتاح ، واوصاني الطبيب بضرورة الغرغرة بين ساعة وساعة .

Twitter: @abdulllah1994

بعد ذهاب الطبيب انزلت الفرشة من على « التختيبة » ، ورتبتها على الديوان وساعدت جبران على نزع ثيابه وارتداء البيجاما . ثم تمددت قربه على السجادة اطالع قصة « الأب غوريو » لبلزاك ثم شخّحت القنديل واستسلمت الى النوم . وكان جبران كلما قام للغرغرة حسب اشارة الطبيب ، قال لي : خوفي ان تكون بردان يا يوسف . معطفي داخل الخزانة . فاجيبه : أنا نائم بثيابي والملائكة حولي فلا ابرد !

عند الصباح اشعلت آلة « السبيرتو » لغلي الماء وأحضرت الشاي والحليب ، وكان جبران منهوكاً اعياءً انما تمكن من شرب فنجان شاي مع قليل من البسكوت والمربّى . وبقي في الفراش لكنه لم يستغرق في السكوت شأنه في الامس ، وراح يحلل سرّ الحياة والموت ويداعبني :

ـ لو مت مساء البارحة ماذا كنت عملت يا يوسف ؟

ـ كنت لحقت بك .. والآن بلا حكي . الحكي يؤذي زلعومك !

ـ والداك يا يوسف ما زالا أحياء ، وكذلك اخواتك ، أما أنا فقد توفيت شقيقتي ووالدتي وشقيقي ، ولا اعلم ماذا حلّ بوالدي . وغصّ صوته تأثراً وبعد قليل عاد فقال :

ـ أنا ولا ريب سأموت قبلك يا يوسف . ارجوك من الآن ان تضع على قبري اسداً ناهضاً يزمجر !

Twitter: @abdulllah1994

ـ وأنا ارجوك يا جبران أن تسكت الآن. بلا موت ولا قبر ولا أسد ...

وسمعنا دقة روزينا على الباب فلاقيتها واطلعتها على حالة جبران معتذراً عن عدم تمكننا من العمل ، محاولاً ان ادفع لها الفرنكين والنصف ، لكنها أبت ومانعت بنزق :

ـ قلت لك مراراً انك لست رودان . اين هو المسيو جبران ؟

وتقدمت نحوه ، وكأم حنونة جسّت جبينه والتفتت إليّ تسألني بلهفة :

ـ من يعتني به ويغسل ثيابه ؟

ـ الخادم .

فهزّت كتفيها ورأسها في عدم رضى وسألت :

ـ أين وجه المخدة والقمصان والكلسات والمحارم ؟

وقامت من تلقاء نفسها إلى الخزانة تفتحها وتفحص الثياب وتجمع منها ما تراءى لها انها بحاجة الى الغسيل ، دون ان تعير أي انتباه لمحاولتي منعها أو لاعتراض جبران من بعيد. وبعدما غيّرت وجه المخدة كأنها وحدها الآمرة الناهية ، لفّت الثياب على شكل بقجة ، وضعتها تحت ابطها وقالت وهي تفتح الباب : سأعود غداً .

Twitter: @abdulllah1994

التفت إليّ جبران والحيرة على وجهه ، وكأن المرض سمح للشك ان يتسرّب إلى العينين الحالمتين :

ــ هل تظنهـــا تعود يا يوسف ؟ لقد اخذت القمصان والكلسات ! هل انت امين منها ؟ هل تعرف عنوانها على الأقل ؟

ــ هوّن عليك يا جبران . أنا امين من روزينا أمانتي من اختي الراهبة وعنوانها اعرفه هنا وفي ايطاليا .

ثم اخبرته عن تسلمي الخمسمئة فرنك ثمن اللوحة وانني على موعد مع كالمي لتسليمه اللوحة الثانية . فارتسمت الطمأنينة على ملامح جبران واستوى في جلسته قائلًا :

ــ أنا جوعان يا يوسف ، احضر لي معك شيئاً للأكل من مطعم مدام « بوده » .. نخاعات اذا امكن !

مع المساء تحسنت حالة جبران .واصرّ على عمل نزهـــة على ان يلفّ عنقه بمنديل فسرنا الهوينا معاً على ضفة نهر السين نشاهد الرسوم والكتب المعروضة ونعلق عـــلى كل ما يحلو لنا التعليق عليه .

وفي الغد جاءت روزينا حاملة « البقجة » وفيها القمصان والكلسات والمحارم ووجه المخدة ــ كلها مكوية مهفهفة تفوح منها رائحة ورق الغار !

Twitter: @abdulllah1994

وجلسنا نكمّل صورة المحمولة عـــلى اذرع الملائكة ، وجبران كعادته ، يفكر بصوت عالٍ . وراح يحلل طبيعة المرأة فقال :

ــ احبها مزيجاً من بياتريس ومسالين؛ ولكن الطامّة الكبرى يا يوسف ان تكون المرأة جميلة ، فجمالها بالذات يكون سبباً لعدم الاطمئنان . واذا لم تكن جميلة ؟ واذا لم تكن مثقفة ؟ هذه الفتاة البسيطة امامنا مثلاً ... انها كنز ثمين ولكن بماذا عسانا نحدثها بعد نصف ساعـة ؟ في أي نقاش يمكن ان نشترك ؟

والتفتُّ إلى جبران فاذا انعكاس الضوء على وجهه يبين ملامحه وحالته النفسية بوضوح وتلك المسحة من الكآبة تكلل جبينه ؛ فتركت روزينا وتحولت نحوه ، وفي اقل من ثلاثة ارباع الساعـــة كانت صورته جاهزة ، فحدّق فيهـا ملياً فأعجبته ، ثم رسم بريشته الاطـــار المستدير حول الصدر وأبدى رغبة في المحافظة على الصورة (وهي مـا تزال بين آثاره وقد نشرت في كثير من الكتب والمجلات) ...

وبينما روزينا ترتدي ثيابها ، فتح جبران علبة صغيرة ، اخرج منها سلسلة وثلاثة اساور فضية وقال لي :

ــ هذه أشياء اشتريتها من بيروت واحتملتها معي الى اميركا ومنها إلى باريس ... وقد وجدت الآن من هي أهلٌ لها ، اعطها يا يوسف هذه الهدية كما لو كانت منك !

Twitter: @abdulllah1994

قلت له : يا عيب الشوم ، أتريـــد ان تعلمني الكذب يا جبران ؟ وقلت لروزينا بلغتها : اقبلي هـــذه الهدية من جبران واشكريه .

والتمعت عينا روزينا بفرح طفلة تفاجأ بهدية تحبها ، ولم تحاول ضبط سرورها ، وسارعت الى الخيط المدلى من عنقها تستبدله بالسلسلة الجديدة ، وبعصبية ادخلت الاساور الفضية في زندها ثم التقطت يد جبران وهمّت ان تقبلها : فقلت لها :

ـ على خدّه !

فتخضبت وجنتاها بالدم ، وكذلك وجنتا جبران وتركها تقبله دون ان يجرأ على اعادة القبلة ! لقد كان حييّاً ، يجيد فنون الغزل فقط في الكتابة والكلام .

لم يكن جبران ، ابان وجوده في باريس « دون جوان » كما يزعم البعض !..

Twitter: @abdulllah1994

ماهو الحُب ؟

ثمة تقليد شائع بين الشعراء يقول : ان الآلهة تغار بعض الاحيان من سعادة الإنسان وتدفعها غيرتها إلى الحمق فتعاكسه . ولو كانت تعقـــل عن حق لسهّلت له طريق السعادة ولما كلفها ذلك شيئاً سوى مضاعفة شكره إياها ، وبالتالي ازدياد انسها وانشراحها مدى الدهور .

ان السعادة الحقيقية هي أن نُسعِد من نحب ... كيف ذلك ؟ هذا سرٌ من اسرار الألهة !

في اللغة الإيطالية لا يقال « احبكِ » بل يقال : « اريد لك الخير » . وهذا ما كنت اشعر به نحو الآنسة اولغا : كنت اتمنى لها الكثير من الخير ، واعبّر عن شعوري هذا بتنضيد الازهار حول البيانو ، وبالاعتناء بها كي لا تذبل . وكنت اجد بعض الاحيان لدى عودتي مساء قطعة حلوى في صحن صغير قرب اناء الزهر . ومرة وجدت ورقة كتب عليها ما يلي : « اذا كنت حراً غداً بعد الظهر وترغب في الجلوس على المرجة الخضراء ، عوضاً عن ان تحبس نفسك

Twitter: @abdulllah1994

في المعهـــد الفني ، ستجدني الساعة الثالثة قرب شجرات الأجاص ... ايام الربيـع هذه جميلة جداً ! »

*

بعد الرسم في معهد « كولاروسي » عرّجت كالعادة ، لأمضي السهرة في مقهى الدوم ... ولدى النظرة الأولى الى وجه سوسان قرأت في عينيها – في « غَزلة » عينيها الخاصة – ان عندها شيئاً تقوله لي . فجلست بقربها . وكان كالمي في حلقة من الأصحاب يعالجون شؤون الساعة ، أما ليّا فكانت بين الأثنين ، متجهة صوبهم باذن ، وصوبنا باذن ، لئلا يفوتها خبر ! قالت سوسان :

– أعرني سمعك وانتباهك . لديَّ هذه المرّة أشياء جدّية مهمّة . قلت لها :

– وهل في المرات الماضية لم تكن أشياؤك جدّية مهمّة ? فلسفة الحب ... السفر إلى الصين ? .

فقالت :

– لست الآن مازحة ، ارجوك .. انت غريب الطباع.. يتراءى لمن يعرفك انك على جانب من الذكاء . اما فهمت بعد ان الآنسة اولغا تحبك ?

ضحكت ليّا ضحكتها الساخرة فانتبهت ، واجبت سوسان مازحاً جاداً في آن واحد :

Twitter: @abdulllah1994

ـ اذا كنت كما تقولين على شيء من الفهم ، فلكي لا افقد وعيي عند اول « نتعة » أنا بحاجة إلى ان أُحِب ، لا ان أُحَب . ان الحب يا آنسة سوسان هو شيء مهم . هو أهم وأجل شيء في الحياة .

فقالت بلهفة :

ـ رجوتك قل لي ما هو في رأيك ، الحب الذي تعني ؟

ـ أنا اولاً لست من رأيك في ان الحب كشربة ماء ، ولا ان المرأة ألعوبة خطرة ، ولا ان الرجل واسطة فقط والغاية هي الولد ، كما يدعي « نيتشه » في كتاب له اعطتنيه الآنسة اولغا اسمه « هكذا تكلم زردوستره » طالعته بشعور اختلط فيه الاعجاب بالكره .

ـ لقد كان لنيتشه هذه النظرة اليائسة لأن « لُو سالومه » لم تبادله الحب .

واكملت ليّا : كانت تقول عنه ان نظره حاد لا يبشر بالسعادة . بعبارة اخرى لم يكن نظره كنظر جبران !

وهنا اسكتتها سوسان قائلة :

ـ لا ريب ان الذين يفشلون في الحب يتحولون عنه الى الفلسفة ، وإلى عمل الخير .. واصلاح الكون ... ونظم الشعر ..

Twitter: @abdulllah1994

وغزلت عيناها وقالت متمتمة :

ـ كن على ثقة اني سوف لا اتركك تتفلسف وتنظم الشعر !

فقلت لها :

ـ اذا لم افعل شيئاً من ذلك ، فالفضل لا يعود اليك. صدقيني .

ـ إلى من يعود الفضل اذن ؟ هل الى ... روزينا الطليانية ؟

ـ هذا سري الخاص ...

فبهتت سوسان ، ثم قالت :

ـ قل لي على الأقل يا صديقي ، ما هو الحب ؟

ـ ليس من السهل الاجابة على هذا السؤال بكلمة أو بعبارة موجزة . الحب حالة نفسية . هو شعور فاعل خفي ، كالشعور الفني والديني ـ هذه المشاعر التي يجنُّ فيها الإنسان جنوناً !

وضحكت ليّا بهزء وهي تقول :

ـ كلام بكلام .. حديث ممل . افضل قصة كاهن أو راهب كبوشي ..

فقاطعتها سوسان باشارة من يدها واعادت عليّ السؤال :

ـ اذا لم يكن سهلاً الاجابة على سؤالي بكلمة أو بعبارة ، فأنا مستعدة لسماع محاضرة في الموضوع ، شرط ان افهم اخيراً رأيك الخاص .

Twitter: @abdulllah1994

ـ هذا يبعدنا عن الموضوع العملي ، كما يقول كالمي ، هل انتِ مكلفة بمهمة من لدن الآنسة اولغا ؟ ماذا تريد بالتمام ؟ لقد مكثنا مؤخراً نحو ساعتين جالسين على المرجة الخضراء نتباحث في كل شيء عدا الموضوع العاطفي ... لم تلفظ كلمة ولا بدا منها ما يجعلني احسّ بأن في عروقها دماً يجري ... وفي صدرها قلباً يخفق !

ـ انتم الرجال « بجاليل » سذّج .. وانت على الخصوص ... اولغا وان تكن من عمرنا فهي في شؤون الحب لا تزال طفلة صغيرة .

وزفرت ليّا زفرة طويلة علامة الضجر ، فقلت لها متعمداً تغيير الموضوع :

ـ اقتربي لأخبرك قصة راهب كبوشي : عند الساعة العاشرة صباحاً ، والحر شديد الوطأة ، كان حضرته سائراً خلف حماره في سهل واسع فشعر بالتعب وحاول الركوب على ظهر الحمار فلم تحمله قدماه . بحث عن حائط أو صخرة يستعين بها على الركوب فلم يجد . ولم يبق امامه إلاّ الركوع والصلاة لمار انطونيوس ، ثم نهض واسند يديه على ظهر الحمار وقفز بكل زخمه . وكانت النتيجة انه انقلب الى الجهة الثانية .. عند ذاك قام ينفض التراب عن جبته وهو يقول : « اكثر من اللازم يا مار انطونيوس ... أنا لم اطلب منك كل هذه النعمة ! » .

Twitter: @abdulllah1994

وضحكت ليّا مقهقهة بملء شدقيها ، اما سوسان فقرّبت فمها من اذني واسرّت إليّ بشيء ، لن أبوح به الآن ..

وفي اليوم التالي وصلتني كلمة من الأخت « تيريز » راهبة المحبة ، تسألني عن الصور اذا كانت جاهزة ، فجاوبتها بالايجاب وعينت لها الوقت لاستلامها . وأحضرتُ صورة العـــذراء ـ ام السبعة آلام ـ وصورة المسيح في بستان الزيتون . ورتبت المحل لاستقبال الأخت « تيريز » .

جاءت في الوقت المحدد مع الأم الرئيسة وراهبة ثانية . دخلن بوقار ترفرف على رؤوسهن الاجنحة البيضاء ، وجثون امام الصور وضممن ايديهن على صدورهن في صلاة قصيرة ... ثم نهضن واقفات وصرن على التوالي يبدين اعجابهن بالصور ويشكرنني . دعوتهن للجلوس فجلسن بحشمة وسألتني الأم الرئيسة عن صحتي واحوالي وعن اخبـــار عمي البطريرك وشقيقاتي الراهبات .

واجتاحتني موجة من التأثر العميق لذلك الاشعاع الروحي والاطمئنان الداخلي ... ان مشهد التعبُّد والخشوع عـــلى وجوه الراهبات لهو الجمـــال الالهي الحق ! ما كان ابعدني تلك اللحظة عن التأثيرات العالمية ؛ عن مقهى الدوم ، ومعهد الرسم وشوارع باريس القديمة ... حتى وعن المرجة الخضراء ! كل تلك الاجواء بدت لعيني الباطنة مادة باردة ، نسبة للجوّ

Twitter: @abdulllah1994

النقيّ الدافئ الذي اسبغته حولي عذارى المسيو « ڤنسان » ، وعبثاً حاول شيطان العقل ان يقول كلمته ، فقد اسكته الشعور الداخلي العميق ...

وكان بين يدي الأخت تيريز علبة صغيرة مربوطة بشريطة زرقاء ، قدمتها لي ، وسمعت الأم الرئيسة تقول :

ـ بالحقيقة لا نعرف كيف نكافئك بغير شكرنا الجزيل وصلواتنا الحارة من اجل توفيقك .

بعد ذلك دعتني لسماع القداس يوم الأحد التالي ولكي اشاهد الصورتين في محلهما على المذبح . ثم وقفت مودعة ، وحملت الأخت تيريز صورة والراهبة الثانية صورة ، وذهبن في هالة من القداسة والطهر ...

ففككت الشريطة الزرقاء عن العلبة المخملية ، فطالعتني مسبحة من حبات العاج الدقيقة ، علق فيها صليب فضي صغير ، بطاقة كتب عليها « مغفرة من يد الأب الاقدس » ، ودزينة محارم كتان طرّز على حواشيها اول حرف من اسمي ، ومكتوب شكر بامضاء الرئيسة .

ما ازال احتفظ بكل هذه الاشياء تذكاراً جميلاً ...

*

كان جبران يستمع إليّ اسرد له اخباري عن اولغا

Twitter: @abdulllah1994

وسوسان وعن راهبات المحبة ، ويحلل ويسمو في التحليل ثم لا يلبث ان يهبط ... ثم يبتعد ... ليعود يسألني بكل بساطة وسذاجة :

ـ هل تحب انت الآنسة اولغا ؟

ـ هذا تطفل منك يا جبران في صميم خصوصياتي . هل سألتك أنا يوماً مثل هـــذا السؤال ؟ بالحقيقة أنا لا اعرف اذا كان هذا الذي اشعر به نحوها هو الحب الذي تعني .

ـ الحب هو الحب يا يوسف ... سكر يجري مع الدم في العروق ... وانواعه متعددة لا تحصى ، حتى انه يكاد ان يكون لكل انسان ولكل انسانة نوع خاص . تعيّنه الصدف والحظ ... وربما طول القامـــة ولون العينين ! ان الإنسان لم يعد يعيش في المغاور والغابات ... حياته تطورت مع الزمن ، وهكذا تفكيره ... كان للعامل الديني اثره الفعّال ... سنّ الكهان شرائع للحب تكرهها نفسي ، لأنها مستوحاة من الجهـــل والكبرياء والظلم والعبودية . فالمرأة المسكينة مضطرة للخضوع ، فهم لم يشاوروها غداة وضعوا الشرائع والقوانين في امر يهمُّها اكثر مما يهمّهم ، ثم راحوا ينسبون شرائعهم للخالق ، والخالق براء منها ، لأنهـا متى حُلّلت وجدت بعيدة عن روح العدالة الالهية .

كان جبران يتكلم بحماسة وتأثُّر بالغين ، كأن الموضوع قد شغل باله طويلًا ، ثم عاد الى سؤاله :

Twitter: @abdulllah1994

ـ قل لي يا يوسف بماذا تشعر نحو الآنسة اولغا ؟

ولكي لا اصدّه مرة ثانية اجبت :

ـ أنا أُريد لها كل الخـــير والسعادة . لقد بنيت لها في اعماق قلبي مذبحاً ولا اريد تصديعه أو هدمه حتى ولو شاءت هي ذلك .

فقال بنزق وقد ضاق ذرعاً بي :

ـ ومتى صرت تتكلم بالشعر ؟ اذا كان الحب متبادلاً والمحبون احراراً ، فما الذي يمنع من ان يكونوا سعداء ؟

فأجبته معترضاً :

ـ هل افهم من كلامك انك عـــلى اتفاق مع الآنسة سوسان بأن الحب كشربة ماء ؟ كلا يا جبران . لا يمكنني البتة الارتياح الى هـــذا النوع من الحب الجسدي الاناني المبتذل ... شيء في اعماق قلبي يعترض بشدة ... اقوى من العقـل والمنطق .. قل لي يا صاحبي : إلى أي شيء ينتهي الحب اذا عريناه من جمال روحه ؟

فقال جبران ضاحكاً :

ـ جمال روحه ؟ أنت تتكلم كراهبة محبة . يبدو لي انه لا يزال في كيانك ترسُّبات فاعلة من الكهنوت !

Twitter: @abdulllah1994

وصعد الدم الى رأسي لدى سمـــاع ملاحظة جبران ، وشعرت بمثل الاهانة . وكانت اول مرة يحتدُّ بيننا الجدل الى هذه الدرجة . لكنني بدلاً من ان اثور ، وليست الثورة من طبيعتي ، اعدت السؤال :

ـ الى أي شيء ينتهي الحب الذي تعني ؟ قل لي . أليس إلى شيء زهيد حقـــير ، يكاد ان يكون عيباً وخجلاً ؟

فسألني بتهكم :

ـ وإلى أي شيء تريده انت ان ينتهي ؟

ـ الى مرتبة عالية تسمو بالانسان الى مصافّ الالهة وتمكنه من اكتناه اعمق المشاعر واروعها وتدفعه الى أجلّ الاعمال واشرفها .

فقال جبران بلهجة ألطف :

ـ كلام جميل ولا شك ، سأدرس هذا الموضوع ، انه يستحق الدرس ...

ـ انت اكتب ... وأنا اضع الكتابة في حيز العمل !.

هكذا انتهى الحديث بيني وبين جبران دون ان يتأزّم الخصام عن «كيوبيد» إله الحب ابن «الزهرة» المحبوبة ، ودون ان نصل الى قرار متفق عليه . ففي هذه الموضوعات يكاد يكون لكل انسان رأيه .

Twitter: @abdulllah1994

ماذا كانت تريد مني أولغا ؟

وكعادتي في كل صباح ، ذهبت لعند جبران . حيناً نشتغل ونحلل امور الحياة ، وحيناً آخر اتركه يعيد على مسمعي بعض ما يدور في رأسه ، وما في نيته ان يكتب ، ولو خطر لي آنذاك ان اسجّل كل ما كان يعنّ على بال جبران لبلغ مجلداً ضخماً ـ كله ممتع والكثير منه لا يزال في طور التكوين . مثال ذلك :

ـ عندي شيء اريد وأود ان اقوله ، لكن الكلمات لا تنقاد لارادتي . في داخلي شيء هائل ، ما ادري أهو شيطان أم ملاك ـ روح قوية تحاول ...

وقبل ان ينهي كلامه اقاطعه أنا قائلًا :

ـ يا حبذا يا جبران لو حاولت ان تضحك ... اخشى ان تكون مطالعة نيتشه قد استهوتك واثرت عليك . أنا لا اتذوق هذا الفيلسوف العابس الذي انتهى الى الجنون . اعجبني تحليل ليّا له ، قالت : إن حدّة نظراته لم تكن توحي السعادة في الحب ، ولو ضحك لربما كانت « لوْسالومه » غيرت رأيها ولم تؤثر الزواج من غيره .

Twitter: @abdulllah1994

فيقول جبران :

ـ اراك تتكلم عن الحب كأنك خبـــير . فقط عندما تكون المسألة متعلقة بغيرك . لكن عندما تكون انت البطل ... تتظاهر بالجهل ! لقد اكدت لي سوسان ان اولغا تكاد تضيّع رشدها ، وانت لا شفقة لك ولا رحمة !

ـ هل هي مؤامرة عليَّ بينك وبين سوسان ؟ اذا كانت الآنسة اولغا تكاد تفقد رشدها فالمسألة بسيطة . ما عليها إلاَّ مغادرة باريس . يؤلمني ان أراها تهمل دروسها ، أما أنا يا صديقي فاؤكد لك اولاً وآخراً انني لست ميالاً الى مطالعة او تمثيل الروايات لا سيما القيام بدور « بطل الرواية » .

ـ نحن يا يوسف دائماً نلعب دور بطل رواية ، سواء شئنا أو لم نشأ .

ـ على كل حال ... لقد عادت مياه السين من زمان الى مستواها الطبيعي ، ولم تعد غرفة الآنسة اولغا عرضة للعفن والرطوبة . ولذا ففي الامكان اعادة البيانو الى حيث كانت اولاً . انت يا جبران كنت السبب في مجيئها لعندي ، فتفضل واسعَ بارجاعها .

وكنتُ جاداً فيما قلت .

Twitter: @abdulllah1994

بعد السهرة في مقهى « الدوم » عدت الى محلي حوالى منتصف الليل فلم اجد البيانو ، بل وجدت عـــلى الطاولة مكتوباً باربع صفحات ، آسف لأنني لم احتفظ به . فأنا ادرك الآن ، بعد فوات الاوان ، كم كان فريداً وكم كان ثميناً ذلك المكتوب ! كله شواهد وحجج فلسفية علمية منطقية ، مفادها ان للمرأة الحرية في ان تنجب ولداً من رجل تختاره ويملأ عقلها وقلبها ، وان والدها متفق معها في هذا الرأي ، وانها قد وجدت ذلك الرجل فيّ ، ولكنها لم تجد في نفسها الشجاعة الادبية والجرأة عـــلى مكاشفتي صراحة في الأمر فعمدت الى الكتابة ، وانها ستأتي في الغد لتأخـذ الجواب . وختمت الرسالة على هذا النحو :

« وارجوك يا صديقي اذا كنت لا تجاريني فيما اريد ، واذا كنت تصرّ على رفض طلبي ، ان تبين لي سبب ذلك ، وان تعمل بوحي عقلك الراجح وقلبك الكبير كي لا اضيّع اعتباري لك ... ولذاتي » .

وقع عليّ كتاب الآنسة اولغا وقوع الصاعقة ، وكان امامي الليل بطوله للتفكير ولتحليل الموقف ودرسه من جميع نواحيه . ولأول مرة في حياتي اذكر انني لم اعرف النوم طوال الليل ، وهذا ما ساعدني عـــلى الاصغاء الى صوت الشعور الداخلي ـ صوت الضمير ، وانتهيت قبيل الفجر الى قرار نهائي ، بأن احافظ على المذبح الذي بنيته لها في اعماق

Twitter: @abdulllah1994

قلبي . واطمأنت نفسي الى هذا القرار ، وتراءى لي ، على قسوته ، انه اجمل بكثير من لذة وقتية زائلة . نعم ! سأعمل كما ارادت هي ، كي لا اجعلها تضيّع اعتبارها لذاتها ولي ... وايضاً لكي لا اضيّع أنا اعتباري لنفسي .

جاءت الآنسة اولغا في الغد ، على فمها بسمة فاتنة كانت قد فقدتها في الاونة الاخيرة ، وادركتْ من نظرتها الاولى اليّ انني ارفض طلبها . وأفهمتها بأنني افعل ذلك محافظة على اعتبارها ، وصيانة لمستقبلها ... ثم ابديت لها رغبتي في مساعدتها على اجتياز الازمة النفسية واستعدادي لبحث ذلك ولقرن قولي بالعمل ، لكنها التفتت اليّ وخاطبتني بهدوء ورباطة جأش قائلة :

ـ اشكرك يا صديقي . ان امتعتي في النزل جاهزة . سأترك باريس في الحال ... دعني اذا شئت اطبع على جبينك ... قبلة الوداع !

هكذا ، وفي منتهى البساطة تركتها تقبلني وتذهب ، وكالمشدوه وقفت في النافذة اراقبها تستقل السيارة وتبتعد ، حتى غابت عن عيني في عطفة الشارع . عندئذ فقط ، ودون ان يكون لارادتي رأي ، جلست على الديوان حاملاً رأسي في كلتا يدي ، وكالطفل الصغير استسلمت لنوبة حادة من البكاء ، لا ادري كم ذرفت خلالها من الدموع .

Twitter: @abdulllah1994

خلافاً للمعتاد ، لم اذهب لعند جبران ذلك الصباح . فقد اصابتني ، بعد انصراف اولغا عـــلى ذلك النحو ، حالة من السويداء ، فكأن يـــداً قوية اعتصرت قلبي . قبيل الظهر طرق الباب ، ولم يكن الطارق سوى جبران نفسه ! جاء يتفقّدني ويستعلم عن سبب غيابي . دخل يعكز على عصاه ، وحدّق طويلاً في وجهي قبل ان يسألني :

ـ لماذا عيناك حمراوان يا يوسف ؟

ـ امس طوّلت السهرة ، أشتغل في ترجمة جحيم دانتي .

ـ هذا غـير صحيح ! متى تعلمت الكذب وعهدي بك صريحاً لا تحكي إلاّ الصدق حتى في قطع رأسك ؟

وقبل ان اجيبه مد يده الى جيبـــه واخرج مكتوباً عرفت للحال ممن يكون . وسرعان ما تبيّنت عليه خط الآنسة اولغا . فلا بـــد أنها كتبته بعد ذهابها من عندي ومرورها بجبران لتودّعه .

جلس جبران بقربي على الديوان وراح كعادته يوجّه الي الاسئلة كأنه مستنطق يحقق في دعوى هامة . وكان يعلق على اجوبتي ويحلل الموقف وانتهى اخيراً الى القول :

ـ أنا فخور بك يا يوسف ، لأنك برهنت انك شهـــم

Twitter: @abdulllah1994

ولبيت نداء العقل لا القلب ، وليس سهلًا ان ينتصر العقل على رغبات الجسد ...

« هِسْ ... » ، قلت له واضعاً اصبعي على فمي ، « هِسْ ... المسألة خصوصية .. جد خصوصية ... وقد انتهت فصولها بسلام ، فلنُرْخِ عليها الستار ... » .

Twitter: @abdulllah1994

زواج كالمي

قالت لي الآنسة سوسان وقد وجدتها وحدها في المكتبة الفنية تنفض الغبار عن الكتب واللوحات :

ـ مجدوب ! اهكذا تركت اولغا تفلت من يدك ؟ لماذا لا تعلّم فنونك لصاحبك كالمي ؟ فقد علق ! خطب ، وقريباً سيتزوج ، والقصة لا تخلو من الفكاهة ، تعال اجلس لأخبرك اياها .

فقلت لسوسان ، غير مخف استغرابي لما اسمع :

ـ هل هذا ممكن ؟ هل هـــذا صحيح ؟ صديقي كالمي علق ؟ وكنت اظنه اكثرنا مناعة ومقاومة لهذه الامور !

هزّت الآنسة سوسان رأسها وقالت بشيء من التحدي والتشفي :

ـ انتم الرجال تحسبون انفسكم ذوي مناعة . لكن كل واحد بدوره له يوم يعلق عـــلى المصلاية ! اسمع الحكاية كما هي :

Twitter: @abdulllah1994

لنا صديق في دائرة التشريفات بسفارة انكلترا ، دعا كالمي مؤخراً لحضور سهرة راقصة بمناسبة ذكرى تتويج الملك ادوار ، فطلب كالمي من صديقه ، على سبيل المزاح ، ان يقدمه الى الناس بلقب « كونت » . وكان بين المدعوين الآنسة استير ، جاءت من لندن لتعنى بتجارة ابيها ، فعنّ لها هي ايضاً ان تحمل لقب « لايدي » ولما التقى الكونت كالمي باللايدي استير — هي فاتنة ساحرة وهو بهيُّ الطلعة رقصا وتبادلا الحب ما طاب لهما وجاء حبهما كالصاعقة جارفاً عنيفاً . ورغم اكتشافهما ان « الكونت واللايدي » هما « عياره » فان حبهما لم يتزعزع ، بل ازداد قوة وامتلك عليهما لبّهما . وتبين بعدئذ انهما من طبيعة واحدة ولهما ميول مشتركة ، اهمها التجارة . وسينصرفان اليها بعد الزواج الذي سيتم قريباً .

كنت اصغي الى حديث الآنسة سوسان باهتمام وذهول ، وقبل ان افتح فمي للتعليق بشيء استأنفت هي الكلام وبنشاط أشد :

— لمناسبة زواج كالمي سنقيم حفلة عائلية في بيتنا ، وانت بين المدعوين ، شرط ان تقنع صديقك جبران بحضور الحفلة والا ماتت ليّا كمداً وغماً . هي الآن مشغولة مع أمي نصنع بعض الحلويات وتحضيرها للمناسبة . و في نيتي أنا بعد ذلك السفر الى الصين لأننا ربما انشأنا في باريس محلًا تجارياً بالاتفاق مع محل لندن . هذه على الأقل رغبة استير . حبذا

Twitter: @abdulllah1994

لو تسمع مني ونسافر معاً ! الفنون ، صدقني ، لا تطعم خبزاً !

ـ ومن قال لك يا صديقتي ان غايتي في الحياة جمع الفلوس ؟ أنا وجبران نستعد للسفر قريباً الى اسطنبول واثينا ... وروما .

ـ عجيب امركما انتما الاثنين ! لا افهم الفائدة من وراء مثل هذه الرحلة سوى انها تضييع وقت !

وقال لي جبران عندما نقلت له بعض حديث الآنسة سوسان عن الدعوة الى العرس :

ـ الوسط يهودي مما لا اوتاح اليه كما تعلم ، واخشى ان نحسّ فيه كغرباء . مع ذلك هي « ليلة يا مكاري » وليّا تستأهل بعض التضحية ، ومدام كالمي تتكلم الانكليزية . لا بأس . نذهب . فقط تبقى الهدية فهل يجوز ان نذهب الى الحفلة « نُطوْطِح » وايدينا فارغة ؟

فقطعت على جبران مجرى حديثه ، وطمأنته بأن حضورنا هدية .. وزيادة !

كنا عشرة اشخاص حول المائدة العامرة بكل ما لذ وطاب . وبعد الأكل والشرب والموسيقى والرقص العائلي ، عملت سوسان اشارة فخيّم السكوت .

ـ سنختم هذه الحفلة ايها السادة بمسابقة للحصول على هذه الهدية .

Twitter: @abdulllah1994

وأومأت الى علبة مخملية حمراء على الطاولة قرب الشمعدان ذي السبع شمعات قائلة :

– هي لمن يروي اطرف قصة . وسأسحب على التوالي اسماء ثلاثة من الحضور . ولم يكن في الكيس أو بالأحرى في يد سوسان سوى ثلاثة اسماء ، بناء على تعليماتي السابقة لها !

سحبت اولاً اسم شاب روماني اخبر قصته باللغة الرومانية اضحكت من فهمها . ثم سحبت اسم « ليّا » فروت في الحال قصة يهودي اضحكت الجميع . وسحبت الورقة الاخيرة واعلنت اسم « جبران » ! فالتفت الحضور صوبه باعناق مشرئبة وصفقوا له على سبيل التشجيع ، فارتبك جبران وتطلع إليّ بعينين مبغوتتين ، فقلت له بالعربية مشجعاً :

– جاء دور جدك المقدام . ألم يفعل في حياته فعلة بطولية ؟ لا بد ان عندك من حكايات جدك اطرف القصص !

وألحّت عليه مدام كالمي بالانكليزية وحثته . ولما وجد جبران نفسه تجاه امر واقع استجمع كل شجاعته الأدبية وبدأ يروي قصة جدّه « جبران » قال :

« كان جدي لا يخرج من بيته إلاّ حاملاً سيفه . ولا يغمض له جفن ما لم يكن السيف إلى جنبه . وحدث مرة ان احد الاساقفة اهدى كنيسة بلدتنا صُوَر « درب الصليب » ...

Twitter: @abdulllah1994

وهنا قاطعه احد الحضور مستفهما عن معنى « درب الصليب » فسارعت أنا الى النجدة وشرحت له المعنى باختصار ، وكمّل جبران القصة :

« علّق الكاهن الصُوَر في الكنيسة وقرع الجرس يدعو الناس الى التجمّع لمشاهدتها . وجاء جدّي مع جمهور الناس ، (وطبعاً كان سيفه معه !) وابتدأ الكاهن يشرح مشيراً إلى اول صورة : هذا هو سيدنا يسوع المسيح في بستان الزيتون .. وهؤلاء الجنود يحاولون القبض عليه ...

« وسحب جدي السيف نصف سحبه وقد جحظت عيناه من شدة الغضب . ولكنه كظم غيظه وارجع السيف إلى غمده مصغياً الى باقي الشرح : وهذه الصورة يا اولادي تمثل سيدنا يسوع المسيح وعلى رأسه اكليل الشوك ... وهذا الجندي يصفعه ..

« وهنا صرخ جدي جبران بل زأر بصوت كالرعد : « هنا في بشري تضرب المسيح ؟ » وسحب السيف على مداه هذه المرة وضرب الجندي فكسر الزجاجة والأطار والصورة ! »

وما انتهى من القصة حتى ضج الجمـــع بالضحك والتصفيق وهتفت ليّا :

ـ الجائزة لجبران ! الجائزة لجبران !

وعلق كلمي قائلًا :

Twitter: @abdulllah1994

ـ اشكروا يا اخوان يهودا الصاووت ان جدّ جبران لم يكن عائشاً في زمن المسيح ، اذ لكان دافع عنه وانقذه من الصلب !

واضافت ليّا قائلة :

ـ ولكانت المسائل « تخربطت » كلها !

وحمل جبران العلبة المخملية ـ ماله وحلاله ـ وانصرفنا قبيل منتصف الليل . كانت السماء صافية وقد انتشرت فيها النجوم المشعشعة ، وثمة قمير يوصوص علينا من خلف الاشجار على جانبي الشارع ، وكلانا في سيره متطلع الى فوق بصدر ناهض، وقلب خفقه المرح حتى الانتشاء . ولم نطق الصبر اكثر ، ففتحنا العلبة فاذا فيها حبات شكولاته صنع سويسرة وحبات من الملبَّس الفاخر ، وقد توسَّط العلبة صورتان لسوسان وليّا ، كل واحدة ضمن اطار صغير . وكان طبيعياً ان يعطيني جبران صورة سوسان ويحتفظ لنفسه بصورة ليّا . واعطاني أيضاً حبات الشكولاته وابقى الملبسات له !

Twitter: @abdulllah1994

الآنسة أليس

ذات يوم ، في المكتبة ، صادفت ليًّا وحدها . ولاحظت للحال على وجهها علامات التأثر والانفعال . ولم يطل سكوتها كثيراً ، حتى بادرتني القول وقد أنست بي :

ـ لقد مرّ السيد جبران من هنا ، ومكث برهة يتفقد الرسوم ويطالع في الكتب والمجلات .

فسألتُها مازحاً :

ـ أوَ لم يتفقد « رسم ليا » ويطالع في « قسماتها » ؟

فأجابت بكآبة :

ـ لا ابداً ، لم يلتفت اليَّ البتة . كان « رسمياً » اكثر من عادته ، وعبثاً تحرَّشت به ليخبرني قصته . قال انه كتب بعض القصص باللغة العربية ، واجمل لي فحواها . كلها محزنة يكثر فيها الوعظ . سألته لماذا لا يكتب اشياء تفرفح القلب ، فأجابني إن الحظ كان قاسياً عليه ، وان البنات لا يفهمنه . فلم ادرك قصده تماماً .

وبعد لحظة تأمُّل سألتني ليًّا ثانية :

Twitter: @abdulllah1994

ـ انت صديقه ، رجوتك ، اخبرني أليس في حياته امرأة ؟

ـ نحن ، في الامور العاطفية ، لا نتدخل في شؤون بعضنا البعض . وهل يهمُّك كثيراً ان تعرفي ان كان في قلب جبران مكان فارغ ؟

ـ طبعاً ...

في هذه الدقيقة بالذات ، وقبل ان اجيبها على سؤالها ، دخل المكتبة زبون يطلب كتاباً فانصرفت ليّا لتلبية طلبه ثم عادت إليّ مسرعة وفي عينيها شجون وشجون . ولكنني وضعت حداً للاسترسال في الحديث بقولي لها :

ـ ارى ان موعد الشغل في المعهد الفني قد حان . الى اللقاء هذا المساء في مقهى الدوم يا صغيرتي . وهناك سنكمل حديثنا .

فتنهدت ليّا ولم تجب ... واشفقتُ على هذه الطفلة المتفتحة على الحياة والحب . آه كم من الكنوز المدفونة في قلوب الفتيات ، يعمى عنها الرجال !

في هذه الالغاز الحلوة المرة كنت مستغرقاً طيلة انصرافي الى رسم « الموديل » . ولا شيء ، اثناء النقل عن « الموديل » الحيّ ، ألذ من التحليل والتأمل في اسرار الكون ، ومداورتها بعقلٍ حيناً وبعاطفة حيناً آخر ، دون التوصُّل الى ما يقنع المنطق ويطمئن القلب !

*

Twitter: @abdulllah1994

ان الاغراب الذين يزورون باريس زيارة خاطفة ، ويلتهون بمغازلة الباريسيات الحسان ، ينتهون على الغالب الى الظن ، متباهين بنتائج مغامراتهم الغرامية ، بأن المرأة الفرنسية هي في طبعها « خفيفة » . لكن هذا مغاير للحقيقة والواقع. وقد اتيح لي اثناء مقامي في باريس التعرُّف الى فرنسيات من اشرف وارصن السيدات ، كما عرفت ربات بيوت فاضلات وراهبات محبة قديسات . وفي رأيي ان البشر : السود والبيض والصفر والحمر ، هم كلهم من فصيلة واحدة . انما يتهيأ لبعضهم الجوُّ والبيئة ، او تكيِّفهم الظروف والاحوال ، فيمسي لكل انسان طراز خاص من العقل والتفكير ... وحتى من الشكل !

غير ان هذا يبعدنا عما نحن بصدده : رسم الجو الباريسي في الحقبة القصيرة التي عشتها مع الصديق جبران في مطلع القرن العشرين ، ونحن في الذروة من ربيع العمر ، وتصوير بعض الشخصيات والأشخاص الذين التقيناهم في طريقنا ، وماشيناهم هنا وهنالك ، فتركوا او لم يتركوا اثراً في نموّ وتركيز تفكيرنا ، وفي تطوّر مفاهيمنا الحياتية والفنية — كل ذلك ونحن نتمرن على درس الفنون الجميلة والآداب . وباريس ، بين مدن العالم ، اسخى من تعطي لكل انسان ما يريد .

Twitter: @abdulllah1994

بينما نحن على عادتنا مجتمعون ذات ليلة في مقهى الدوم اومأت سوسان الى فتاة مرّت امامنـــا وغابت ثم عادت ومرّت من جديد كأنها تبحث عن شيء . وأخيراً التفت اليّ وقالت بصوت خافت :

ـ هذه مدموازيل « أليس » ، تبدو كالضائعـة . وهي حقاً ضائعة !

وضحكت ليًّا باستخفاف فنهرتها سوسان قائلة :

ـ لا تكوني قاسية يا اختي . أليس مسكينة تستحق الرأفة والعطف ولو كنتُ جالسة وحدي لأقبلت نحوي وكلمتني .

ومرّت الفتاة للمرة الثالثة ، فحدّقتُ في وجهها عن كثب لأفهم ملاحظة سوسان ، فطالعتني على محياها الشاحب ، من خلال نظراتها الزائغة ، مأساة الحياة العاتية الغادرة . واشرت على سوسان بأن تدعوها للجلوس معنا فرحّبت بالفكرة ، ونادتها باسمها . ولم تتلكأ أليس ، فأقبلت تتهادى ، محاولة اخفاء ما بها من قلق واضطراب . ولكن سوسان هدأت من روعها وفسحت لها مكاناً معنا على المائدة وطمأنتهـــا بأنني صديق يمكن الارتياح اليه ، فزال ما ساور الفتاة من تردُّد ووجل وترامت على الكرسي ، شاكرة ، تريح جسدها المتعب واعصابها المتوترة .

Twitter: @abdulllah1994

وهرول الخادم والمنشفة بيده يستفهم منها عما تريد ان تشرب أو تأكل ، فسبقتها الى اعطاء التعليمات :

ـ حضّر صحون العشاء وأتني بلائحة الطعام !

وانفرجت اسارير أليس عن بسمة وقالت :

ـ يظهر يا سيدي انك نبيّ وتقرأ ما في الغيب ...

ـ وما في المعدة ايضاً !

قلت هـــذا ضاحكاً . وبدأت غيوم الكآبة تنقشع عن جبينها الوضاح ، خصوصاً بعد ان شربت الحساء . وتركتها تأكل وتتحدث مع سوسان على مهل ، بينما رحنا أنا وليًّا نخبر النكات والقصص الظريفة !

بعد انتهائها من الطعام ، همَّت الآنسة أليس بالذهاب ، فكتبت لها سوسان شيئاً على ورقـــة صغيرة سارعت الى اخفائها في عبّها ـ ودسّت في يدها ، خفية ، بعض النقود . ثم قامت تشكرنا وتودعنا ، ومشت بخطى ثابتة ورأس مرتفع يكاد يوحي بالكبرياء !

وادرت وجهي الى سوسان ، قائلًا لها بلهجة تشبه الأمر :

ـ والان ... هاتي القصة بكاملها . ولا تنسي ان تخبرينا ماذا كتبتِ لها . وما معنى الدراهم . والى اين هي ذاهبة ؟

ـ اترك ذلك الى الآخر . وهاك القصة من اولها :

Twitter: @abdulllah1994

ليس عهدي بمعرفة أليس ببعيد . منذ يومين كنت وحدي في المكتبة عندما دخلت هذه الصبية برفقة شاب أنيق وطلبت ان تشتري كتاباً . ولاحظت انها راحت تستعرض الاسعار دون الاهتمام بمواضيع الكتب . واختارت كتاباً ثمنه عشرة فرنكات ، لففتُه لها وسلمتها اياه ، ودفع الرفيق الثمن وانصرفا .

وبعد مرور ساعة رجعت الصبية وحدها وبيدها الكتاب لا يزال ملفوفاً ، ولم تخف عني اضطرابها ، وآثار الدموع في عينيها ، ورأيتها تزمُّ شفتيها الراجفتين مستصعبة البوح بما يجيش في صدرها . فلما رأيتها على هذه الحال ، اخذتها من يدها برفق وقدتها الى الغرفة الداخلية في المكتبة ، وهناك اجلستها على الديوان وسألتها عما بها وكيف يمكنني مساعدتها . وبعد ان جففت دموعها قالت :

ـ أنا شقية ! وتعيسة جداً . وقصتي محزنة . لكنكِ امرأة مثلي ولا شك انك تفهمين ما سأقوله لك ، وربما تمكنتِ من مساعدتي .. لأنني على شفير الهاوية .

وبعد نهدة عميقة اضافت :

ـ جئت الى باريس من عشرين يوماً وفي جيبي خمسون فرنكاً .

ـ ولماذا جئت الى باريس ؟ أليس لك اهل ؟

ـ والدي طبيب في بلدة (...) وقد درست في معهد

Twitter: @abdulllah1994

للراهبات واحسن الاشغال اليدوية والضرب على الآلة الكاتبة ، وقد جئت الى باريس لأبحث عن عمل لأن الحياة في بلدتي لم تعد تطاق . ماتت والدتي منذ سنة وحلّت الخادمة محلها ، فأمسيت غريبة في بيتي ، ثقيلة على والدي وزوجته . أو هكذا كنت اشعر دائماً . ولكي يتخلصا من وجودي معهما حاولا اقناعي ، وارغامي ، على الزواج من شاب لا يناسبني علماً أو ادباً . لكنه غني ! فهل من تعاسة تفوق تعاستي ؟ وبدلاً من ان ارمي بنفسي في النهر ، هربت الى باريس ، واستأجرت غرفة بعشرة فرنكات لمدة شهر ، وعبثاً بحثت عن عمل . وقد نفد كل ما معي ، وها آخر الشهر يقترب ، وهذا الصباح اوقفتني « البوّابة » اثناء مروري بها وفهمت منها انني اذا لم ادفع اجرة الغرفة بأول الشهر فلن تسلمني المفتاح . وليس في جيبي حتى ثمن فنجان قهوة ! فتهت كالضائعة او كالمجنونة في شوارع باريس . وفي اول شارع « فاڤن » التقيت هذا الشاب ولكي يفاتحني الحديث سألني ان كنت بحاجة الى شيء . اجبته إني بحاجة الى كتاب للمطالعة ... وها هو الكتاب ما يزال بلفته ، فان شئت يا آنسة مساعدتي ، ارجعت لي من ثمنه ما تريدين... اقسم لك انني على شفير الهاوية !

هذه هي قصة أليس ، انتهت سوسان الى القول ، وهي كما ترى لا تختلف كثيراً عن قصص غيرها من اللواتي تعوّد

Twitter: @abdulllah1994

الكتبة والفريسيون المرائيون رميَهن بالحجارة او قذفهن بأبشع المسبّات ! وقد شاهدتها بعينك . واليك الآن ما كتبت لها : لقد كتبتُ عنوانك . وهي ذاهبة لتنام ، وغداً صباحاً في نيتها ان تزورك .

ـ عال عال ! اهكذا تصلين لي الفخ ؟ ما كنت ابداً انتظر منك مثل هذا العمل .

ـ النتيجة ان أليس ستذهب لعندك غداً .

وهنا دخل كالمي مع الدكتور كسپار وسمع آخر كلام سوسان فسحب كرسيَّه وجلس معنا وهو يقول :

ـ اهكذا يا عزيزتي تدبّرين البنات ؟ اخشى ان عملك عندي سيدرّ عليك اكثر من بيع الكتب !

ـ صه ! واذا كنت حضرتك ذا مقدرة كما تدعي ، فهات دبّر شغلًا لفتاة مسكينة تحسن الضرب على الآلة الكاتبة ...

وبدا الاهتمام على وجه الدكتور كسپار فسأل :

ـ وكيف هي هذه الفتاة ؟ وكيف اخلاقها وسلوكها ؟ أنا بحاجة ماسّة الى فتاة تنسخ لي النشرات والتقارير الطبية . وادفع لها اجرة حسنة .

ثم اندفع يشرح بالتفصيل عن طبيعة المكروبات . فاقتربت ليّا مني وهمست في اذني :

Twitter: @abdulllah1994

ـ لنترکهم في حديث المكروبات ، واسمع كيف ربح « ايزاك » ثروة كبيرة مكنته من انشاء اكبر مخزن في شارع « سان جرمان » .

ـ كلي اذان للسمع والاصغاء لعلني استفيد من الامثولة .

ـ في احدى مدن المانيا حيث كُرهُ اليهود بالغ اقصاه.. كان « ايزاك » يغير زيّه بزي فقير ويضع على عينيه نظارات ملونة ويجلس منفرداً قرب مدخل الكنيسة وامامه لوحة صغيرة مكتوب عليها : « لا أقبل حسنة من اليهود المناجيس » فكانت المباركات تمطر عليه من كل صوب . ولما تمتلئ جيوبه يذهب ويفرغها في بنك صديقه « الياهو » !

في الصباح التالي جاءتني الآنسة أليس بالفعل حاملة طاقة كبيرة من الورد الأبيض ومتحلية بأجمل ثيابها .. خاطبتها دون ان ادعوها الى الجلوس :

ـ اشكرك كثيراً . ما كان يجب ان تكلفي نفسك . أنا احب الزهور . وانت ولا شك زهرة جميلة ايتها الآنسة... ولكن ...

بعد هنيهة صمت اتممت كلامي بلهجة جدية :

ـ اذا كنت حقيقة بحاجة الى شغل يكفل لك الطعام والمأوى والحرية ، لي صديق هو الدكتور كسپار يعوزه

Twitter: @abdulllah1994

من ينسخ له منشورات وتقارير طبية . هذا عنوانه الكامل ورقم تلفونه . يمكنك ان تكلميه عـــلى التلفون من محل « بوشنى » القريب من هنا ، وتأخذي منه موعداً .

وراحت أليس تساوي الورود في الأناء دون ان تنبس ببنت شفة ، وفهمت من حركاتها انها تريد ان تقول شيئاً استعدت عليه . ولكي اسدّ عليها الطريق قلت :

ـ واذا لم يرق لك نسخ النشرات الطبيـة فهناك ملجأ راهبات المحبة . اطلبي الأخت تيريز وهي تساعدك . ومعهد « كولاروسي » يرحب دائماً بموديل ...

ـ اهذا كل شيء ؟

ـ نعم هذا كل شيء .

ـ اشكرك يا سيدي ...

وذهبت مثلما اتت ، لا تلوي على شيء

Twitter: @abdulllah1994

الأب لومتر

خرجنا بعد العشاء من مطعم بوده مترددين لا نعرف ماذا نفعل : هل نذهب الى المعهد الفني ؟ الطقس رائع والليل صاف ، يغري بنزهة ليلية نترك فيها لمخيلاتنا العنان ! لكن جبران تعب ... هل نفترق ليذهب جبران الى محله وأنا الى مقهى الدوم ؟ وقفنا على مفترق الطريق وقد طال بنا التردُّد ، وحانت مني التفاتة نحو المقهى . يا للعجب ، لم اصدق عيني ! هناك في زاوية الرصيف حول طاولة ، يجلس صديقنا الدكتور كسپار مع كاهن ؟ اجل انه كاهن ! لباسه الاسود لا يحتمل الشك .

فقال جبران :

ـ الدكتور كسپار ... مع كاهن .. في قهوة الدوم ! هل تقمّصت الآنسة مارتين ؟ بماذا عساهما يتحدثان يا ترى ؟

وللحال توجهنا صوبهما مدفوعين بقوة تلقائية . ولما رآنا كسپار اومأ الينا بكلتا يديه داعياً ايانا للجلوس ، فلم نكذّب خبراً . وقام الكاهن الشاب على رجليه ، مسلماً بوداعة وابتسام ، وبالطبع تولّى كسپار عملية التعارف :

Twitter: @abdulllah1994

ـ السيد جبران وصديقه .. من لبنان . نسيبي الأب «لومتر» .

ومدّ الأب يده ليصافحنا وهو يقول :

ـ أنا سعيد جداً بالتعرف الى فينيقيين اصليين ...

ـ ؟ !

ـ ماذا ؟ لا احسبني غلطاناً ! ألستما لبنانيين فينيقيين ؟

ـ فقلت :

ـ نسبة مئوية ضئيلة جداً ، ربما لا تزيد على نقطة دم في العروق نتيجة آلاف السنين تحت طبقات آخرها « المارونية» .

جلسنا . وجاء الخادم بالقهوة مع الكريما . وقال الدكتور زيادة في الايضاح :

ـ ابن خالي يهتم بعلم الفلك ويدرس نظرية جديدة عن اصل الكون . ولما جاء الى باريس لم يشأ إلاّ زيارة ابن عمته اولاً ، لأنه مشوق الى رؤياه كما ترياق ! ثم انه سيتصل في متحف اللوفر ببعض علماء الآثار ، ليستفهم منهم عن التقاليد الفينيقية القديمة فيما له علاقة بموضوعه . أنا واياه من حيث اهتماماتنا العلمية ، على طرفي نقيض : هو يهتم لأكبر الاشياء ـ السُدُم ـ وأنا لأصغرها ـ الجراثيم ـ لكن هذا الفارق الهائل لا يسبب بيننا أي خلاف .

Twitter: @abdulllah1994

كأنّ جبران ، لدى هذه الملاحظة ، « امسك الثور من قرونه ! » فلم يكن قد نسي بعد جدله الحاد مع الدكتور عن وجود الله : « انتم الشرقيين ... وانتم الغربيين ! » وهكذا سأل الدكتور :

ـ والاعتقاد بالله وعـــدم الاعتقاد به ، ألا يثير بينكما خلافاً ؟

ولم يخف جوهر سؤال جبران على الكاهن ، فتبسّم وتولى هو الاجابة :

ـ كسپار ذو ايمان ضعيف . ربما بلا ايمان بالمرة . وأنا ايماني راسخ لا يقبل الشك . ولكن نحن اقرباء ومتفقان دائماً رغم هذا البَون الشاسع في مبادئنا ومعتقداتنا . ابن عمي قلبه طيب وعقله سليم .

ووافق جبران بقوله :

ـ لا ريب ان طيبة القلوب وسلامة العقول هما اساس التفاهم .

والتفت اليّ ، رافعاً اصبعين في حركة آلية :

ـ نحن الاثنين اصحاب مع اننا لا نفكر دائماً التفكير ذاته .

وفيما كان الحديث يدور على هذا النمط ، كنت اتساءل في نفسي :

Twitter: @abdulllah1994

ـ اصل الكون ! من يمكنه معرفة اصل الكائنات ؟
وهنا سألت الكاهن بلهفة :

ـ هل تمكنت يا ابتي من فهم شيء واضح عن بـــدء الكون ـ طبعاً عدا انه خلقه في ستة ايام ، وما نعلمه عن آدم وحواء والتفاحة ؟

فأجاب الكاهن بلهجة جدية بسيطة وأنا احدّق في وجهه لأفهم كل كلمة ينطق بها :

ـ هناك احتمال ان الكون كان في البدء مجموعة مواد . واجدادك الفينيقيون زعموا ان « بيضة » وُجدت وانشطرت ذات يوم بتأثيرات خاصة : ارادة الخالق ... الله !

فسألته مازحاً :

ـ ألم يكن عنده شيء يتسلى به غير تفقيس البيض ؟

وتبسّم الكاهن كطفل ساذج لدى سماعه سؤالي . وفي هذه اللحظة وصل كالمي ، وبعد ان سلّم وجلس سرعان ما اشترك في الحديث ؛ ولما فهم من الأب لومتر نظرية اجدادنا بخصوص « البيضة » قال :

ـ يحيّرني هؤلاء الناس . يخترعون اشياء واشيـــاء ولا يعرفون كيف يستغلون اختراعاتهم ولا كيف يحافظون على حقوقهم . مثلاً ، هم علموا الناس الحروف الابجدية ولم يحافظوا

Twitter: @abdulllah1994

على « حقوق التأليف » فلو طالبوا بها كل من اقتبسها واستعملها في مستهل هذا القرن العشرين لربحوا المليارات !

فقلت له مداعبا :

ـ نحن بالنيابة عن مواطنينا نسلمك الدعوى ، وكالعادة نترك لك عشرة بالمئة !

من هذه الملاحظة فهم الأب لومتر ان كالمي يهودي ، فتمم عبارات مجاملة عن ابائنا ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى ... وعن العهد القديم والجديد ، وعن المسيحية والمحمدية ، واشار كذلك الى البوذية ، مما أظهر تعمقُّه في علم اللاهوت .

واشترك مع جبران في تحليل وتعليل بعض المظاهر الدينية ، وعن سبب الابتعاد عن نقطة الانطلاق ، وما يتبع ذلك من الالتهاء بالقشور دون اللباب ، ومن التهوّر في لجّة التعصُّب الذميم البغيض ... من ذلك اذكر سؤالاً لجبران وجهه الى الأب لومتر :

ـ أليس الأوفق للانسانية ، في مرحلتها هذه وسط طريق لا يعرف تماماً اولها من آخرها ، ان يعيش بنو البشر إخواناً على الارض ؟

فأجاب الكاهن التقي ، بكل تأكيد ، وكل ما نحتاج

Twitter: @abdulllah1994

اليه قليل من رحابة الصدر والتساهل والتسامح ، وهذا هو تماماً معنى الدين .

وعلى هامش ذلك روى لنا قصة حدثت بحضورة قال :

ـ كنت عند الكاردينال « مارسيه » رئيس اساقفة « مالين » عندما جاءت سيدة برفقة ابنتها الصبية تطلب مواجهة الكاردينال ، فراحت تشكو ، بلهجة شديدة ، من صرامة الشرائع الدينية والمدنية .. ذكرت انها ارملة وان زوجها خدم بلاده كوزير وكسفير ، وان ابنتها الآن مخطوبة والشريعة البلجيكية لا تحلل الزواج دون شهادة معمودية ، وان ابنتها ليست معمّدة ، لأنها وزوجها لم يكونا يعلقان اهمية على هذه « الولدنات » !

نعم ! هكذا كانت تتكلم السيدة ، وبعرف الحاضرين كانت تجدّف ، لكن رجل الله تبسّم لها ابتسامة ابوية مسيحية وسأل الآنسة بلطف :

ـ هل تريدين يا ابنتي ان تتعمدي لكي تتمكني من الزواج حسب الشرائع ؟

فأجابت « نعم يا ابتي » ، واطرقت بنظرها الى الارض وقد عبقت وجنتاها بالدم . فقال لي الكاردينال :

ـ ائتني بقدح ماء . ولما احضرته له بلل منه رأس اصبعه

Twitter: @abdulllah1994

ورسم علامة الصليب على جبهة الفتاة وهو يتمتم :

« أعمدك باسم الاب والابن والروح القدس » . ثم التفت إليّ قائلًا :

« سلمها الآن شهادة العمادة لكي تتمكن من الزواج » .

وقال للفتاة :

ـ اهنئك سلفاً ايتها الآنسة واتمنى لك السعادة .

ثم سأل السيدة :

ـ هل من امر آخر لخدمتك يا سيدتي ؟

فشكرته السيدة بتأثر بالغ والدموع تجول في عينيها ، وانحنت تقبل يده ، فأخفاها بتواضع ...

فقاطعه الدكتور :

ـ كفانا وعظاً ! كأني بك تريد ان تهدي الاصحاب . هؤلاء ليسوا بحاجة الى الهداية ، كلهم لطفاء وقلوبهم طافحة بالحب .

اما أنا فقلت لجبران بالعربية معلقاً :

ـ قصة العمادة اجمل من قصة البيضة .

فأجاب :

ـ هي اقرب للفهم .. وللقلب .

Twitter: @abdulllah1994

ونهض جبران مودعاً الاصحاب ليذهب الى النوم . فهو لم يكن يحتمل السهر الطويل . ورافقته بضع خطوات لئلا تفوتني آخر تعليقاته على الموضوع :

ـ يا حبذا لو كان في قلوب كل الاحبار قليل من لطف رئيس اساقفة « مالين » . ما زالت اخبار احبار عمك تتردد في خاطري وتشغل بالي !

فودعته قائلًا :

ـ التوبة ! سوف لا اعيدها على مسمعك مرة ثانية !

Twitter: @abdulllah1994

الدكتور كسپار ـ مونكارا

هل نحن في هذا الكون سوى ذرّة صغيرة ـ جرثومة تكاد لا ترى ـ عالقة عـــلى حبة غبار ضائعة امام مدخل اتون ملتهب ، في نور نجمة هائلة ، واحدة من اربعين مليار نجمة في سديم واحد من مليارات السدم ؟

بهذا السؤال فاجأني الدكتور كسپار وقد دخلت عليه مرة في مقهى الدوم ، وكان وحده مكباً على كتاب علمي يطالعه برغبـــة . ولما جلست الى قربه أستجمع افكاري لأستوعب سؤاله من جميع نواحيه ، كمّل قائلاً :

ـ الانسان هيكل عظمي مغلّف بلحم وشحم . انبوب لهضم المواد الغذائية . مليارات من الاجزاء الصغيرة .

ولم اجد في نفسي ميلاً للاصغاء الى هذا الحديث او لاجابة المحدّث ، وعبثاً حاولت إسكاته وتغيير الموضوع ، ولكنني كنت كمن يوقد ناراً ، وكان الدكتور يزداد حماسة واسترسالاً :

ـ يتكلم الانسان عن طريق إخراج الهواء من الفم ،

Twitter: @abdulllah1994

وتحريك اللسان بطريقة خاصة ، ويأتي الكلام بمعنى أو بدون معنى ! مثلاً « سي ما تو يو سي تان تو » هل تفهم معناها ؟

فأجبته بنبرة قوية عـــلى امل ان اقوى عليه واردّه عن غيّه :

ــ قل لي هل تفهم الآنسة مارتين كل ما يخرج من فم الدكتور بواسطة قليل من إخراج الهواء وكثير من ... طق الحنك ؟

فلم يرق له سؤالي ، ورفع يده مهدداً على طريقته الخاصة :

ــ مالك ولمارتين ! أنا اكلمها باللغة التي تفهمها !

فأجبته في الحال وقد قلدته برفع اليد والتهديد :

ــ وهي تكلمك بلغة لا تريد فهمها ! هي تريد ان تتزوج حسب الشرائع ليكون لها عائلة واطفال .

وهنا قطع علينا الحديث دخول بعض الاصحاب وبينهم سوسان وليّا ؛ وشعرت بالفرج والانشراح لدى رؤية ليّا تبتسم بخبث وتدنو مني مشيرة بأن لديها قصة ! وسألتني بدون مقدّمات وبشيء من السخرية البريئة :

ــ اذا كان موجوداً في كل مكان ، كيف يمكنه ان يتحرك ؟

Twitter: @abdulllah1994

فأجبتها بالنبرة ذاتها :

ـ يمكنه دائماً صنع العجائب . والآن دونك وهـذا المزاح ... هاتي القصة !

*

كنا في مقهى الدوم ، في مستهل فصل الصيف ، وقد أُفرِدت بعض الطاولات على الرصيف الواسع وصُفَّت حولها الكراسي ، مما راق لصديقي « مونكادا » ، وهو كهل من اصل ايطالي اسباني يهتم في الحي اللاتيني بتجارة صغيرة تَغُلّ عليه ما يكفي للعيش ببساطة ودعة مـع امرأته الفرنسية التي كانت شريكته في المحل وصاحبة رأس المال .

ولم تكن تجارتـه الصغيرة ولا امرأته الفرنسية ولا اصله وفصله يستهويني ويستدعي اهتمامي لولا ثقافة مونكادا السياسية الواسعة ، فقد كان مطلعاً على كثير من الامور التي يهمني الاطلاع عليها ، وعلاوة على ذلك كان يطيب لي التحدث اليه بلغة دانتي الجميلة ، لا سيما انـه كان من المعجبين بالشاعر الكبير . واذكر كيف كادت تفيض دموعه فرحاً عندما علم انني اترجم « الجحيم » الى لغتي العربية .

واكثر ما كان يلفت النظر في صديقي مونكادا لحيتـه الطويلة . لا ابالغ اذا قلت انها اطول لحيـة شاهدتها في حياتي . كم كانت تذكّرني بلحى الأحبار الاجلاء في لبنان !

Twitter: @abdulllah1994

ولطالما رأيته في الامسيات ، يدخل مقهى الدوم متأبطاً كدسة من الصحف ، وينتحي طاولة منفردة ويصفق منادياً الخادم ليحضر له جريدة « الطان » وفنجان قهوة مع الكريما ثم يجلس وينهمك في مطالعته وهو يتلمّس لحيتــــه ، من فوق الى اسفل ! وبين الحين والحـــين يختلس النظرات الى المارّين ... طبعاً والمارّات ! وعندما يراني داخلاً كان دائماً يدعوني الى مجالسته ويلحّ عــليّ . وكان احياناً يقول لي :

ـ انت يا صديقي « پپّينو » رجل كامل . كل صفاتك تعجبني. انت اعز اصدقائي هنا دون مبالغة ، لكن ثمـــة شيء في تصرّفك اعجز عن فهمه وعن تفسيره . كيف تجـد لذة في معاشرة بنـــات يهوديات قذرات ! أوف ! كل مرة اراك جالساً معهن تتضاحكون وتتبادلون النكات يستولي عـــليّ الغيظ . هـــل يليق بك سلوك كهذا ، وانت ابن عيلة ، كما يبدو عليك ؟

كان يقول ذلك فلا اناقشه رأيه هذا ، بل كنت احوّل الحديث على هذا النحو :

ـ ما قولك يا صديقي ، هل تحتل ايطاليا طرابلس الغرب ، وتعطي درساً لمولانا السلطان ، ولرجال الاتحاد والترقي ؟

ـ الصحيح ... نحن بحاجة الى مستعمرات ! بلادنا تضيق علينا . نـــكاد نأكل بعضنا البعض . واخواننا الانكليز

Twitter: @abdulllah1994

والفرنسيون لا تغيب الشمس عن اراضيهـــم ، اعني عن مستعمراتهم .

وكأنّ هذا الشعور بالكره كان متبادلاً بين مونكادا والفتاتين ، فعندما كانتا تشاهداني جالساً مـع « الكهل ذي اللحية القبيحة ! » كانتا تظهران استياءهما وتعبران عنه بألف طريقة ! سوسان تحوّل نظرها لئلا تظهر وتمر بي غير آبهة كأنني غريب ، أو كأنني غير موجود ! وليّا لا تعبس ولا تبتسم ، انما « تكشر » بهزء وتجول بعينيها في الفراغ ! وأنا في مراقبتي اياهما ، كأنني اقرأ بوضوح ما يجول في خاطريهما . وطالما سمعت سوسان تقول لي :

ـ لا افهم يا صديقي أية متعة تجدها في مجالسة ومحادثة ايطالي وسخ ! هل يليق برجل فنان مثلك ان يتدنى في معاشرته للناس إلى هذا الحد ؟

وتضيف ليّا متضاحكة بسخرية :

ـ أنا احزر ايام الاسبوع من النظر الى لحيته وملاحظة تبدل الوانها ، انها « كروزنامة » : في يومي الاحد والاثنين لونهـا اسود غامق ... الثلاثاء والاربعاء لونها يبرشّ ويتلألأ البياض عند جذور الشعر ... الخميس والجمعة يتغلب البياض على السواد ... السبت ، من جديد ، لونها اسود غامق الخ .. اؤكد لك انها احسن روزنامة عرفتها ، فهي لا تقبل الخطأ !

Twitter: @abdulllah1994

وترنّ ضحكة ليّا في انطلاقتها الموسيقية – تلك الضحكة الساخرة التي حببتهـــا إليّ . أين جبران يسمع كلام ليّا وضحكتها ! وكم مرة همست في اذني شكواها بتألّم :

– جبران لا يصغي إليّ ولا يأبه لي . ما العمل ؟ انه مترفع عني ، لا يهتم بي . كل وقته مشغول بالاميركيات !

Twitter: @abdulllah1994

١٤ تموز

نحن في اوائل تموز . بعد ايام ، في الرابع عشر منه ، عيد الجمهورية الفرنسية – ذكرى هدم سجن « الباستيل » . الناس في كل مكان تتأهب للكارنڤال . الاستعدادات قائمة على قدم وساق : اقواس نصر ، زينات ، ألعاب واسهم نارية . كذلك حفلات اكل وشرب ورقص ، ليس فقط في النوادي وفي البيوت ، بل ايضاً في عرض الطرقات وعلى الارصفة وفي الساحات العامة ! باريس في ١٤ تموز تضجّ بسكانها وزائريها ، تضجّ برجالها ونسائها ، بشبانها وشيوخها واطفالها – الكل ينسى نفسه في غمرة الفرح الشامل ، ويقضي يوماً ، هو بحق يوم من العمر !

– هل من اللائق يا جبران ان نبقى نحن في عزلتنا فلا نشارك الفرنسيين افراحهم ؟ لا تنس اننا ضيوفهم وأقل واجبات الضيف ان يحاول الانسجام مع اهل البلد المضيف . ما يمنع ان نذهب أنا وأنت ليلة العيد الى مقهى الدوم ؟ ليس من الضروري ان نجلس مع احد ، في وسعنا اذا شئنا ان نبقى وحدنا !

Twitter: @abdulllah1994

فقال جبران ، رافعاً اصبعه ، وقد برقت عيناه وابتسم ابتسامته الغامضة الرقيقة :

ـ آه يا يوسف حبـــل الكذب قصير ! لا ريب ان الآنسة ليّا وراء هـــذه الفكرة الجهنمية ، كأني بك لا تتكلم إلاّ بلسانها ! امس مررت بالمكتبة فوجدتها وحدها ، كعصفورة في قفص ! وقد زينت لي هـذا الرأي بالذات ، وعرضته عليّ في كثير من الاغراء ، عـــلى امل اقناعي . غريب امر هذه الآنسة كلامها اكبر منها ، هي في عيني لا تزيد عن كونها طفلة ومـــع ذلك فلها كلام في منتهى العمق ، حتى انني كثيراً ما اشك فيما اذا كانت تعيد بعض العبارات كالببغاء ، دون ان تفهم ما تقول . نعم .. ألحّت كثيراً عليّ لقبول دعوتها الى سهرة ١٤ تموز ...

ـ لعلك تريد ان تقول لي : انك رفضتها ؟ ما اقسى قلبك يا جبران ! حتى انه احياناً يتراءى لي انك بلا قلب !

لكن جبران ، عوضاً عن ان يجيبني ، راح يردّد بيتاً من الشعر ، بينه وبين نفسه :

ولي كبد مقروحة من يعيرني
بها كبداً ليست بذات قروح ؟

فاجبته ، بالنغمة ذاتها ، « ثلاثة تجلي عن القلب الحزَن ...»

Twitter: @abdulllah1994

ثم اضفت بلهجة اكثر جدية : قل لي يا جبران ، ألا تجد بعض الشبه بين شعر ليّا وشعر اولغا من حيث اللون ؟ اعرف انك تحب لون الشعر المائل الى الشقرة ... الذهبي الغامق .

ومضيت في مداعبة جبران ومداورته على هذا الشكل حتى نجحت اخـــيراً في اقناعه بتمضية سهرة ١٤ تموز في مقهى الدوم . وكم فرحت ليّا وكم صفقت وقفزت للخبر ! وشاركتها فرحتها الكبرى سوسان وكالمي والدكتور كسپار ومارتين — جميعهم في الواقع كانوا يحبون جبران ويستأنسون باحاديثه ويتمنون له كل خير .

لم يكن جبران يجيـــد الرقص ، ولعله لم يرقص مرة واحدة في حياته ، وسهرة ١٤ تموز بدون رقص لا معنى لها ؛ وهكذا اجتهدت في اقناع جبران بضرورة تجاوبه مع الوضع ، فذكرت له عزيمة ليّا والحاحها ، والرقص والموسيقى ، والحيـــاة والحب ، وهي كلها من نعم الحياة التي لا تثمن ! وليس لائقاً ان نكون ناكري الجميل . واضفت قائلًا :

— المسألة بسيطة يا جبران ، تتقدم بكل تهذيب وتنحني بلطف امام ليّا وتخاطبها بلهجة رقيقة جذابة بقدر الامكان : « ايتها الآنسة ، هل تسمحين لي بهذه الرقصة ؟ » وهي بالطبع تنهض برشاقة ودلال ملبية دعوتك فتقابلها ممسكاً يدها

Twitter: @abdulllah1994

اليسرى بيدك اليمنى ، وتضع اليد الثانية حول خصرها ، ولا يبقى الا ان تمشي الهوينا عـــلى وقع الموسيقى ... هكذا ... رِجْل الى الامام ورجل الى الخلف !

بعد هذا الدرس النظري امسكت بيد جبران وقدته مستقوياً على تمنُّعه وضحكه ، وأجرينا معاً بعض التمرينات العملية . ولما لمست منه الرضوخ لحكم الواقع قلت له :

ـ أنا اعلمك الرقص « بلاش » شرط ألا تسوِّد وجهي . وسأبشِّر ليًّا الليلة بأنك راقص معهـــا . فكر جيداً بهذا الامر !

وفي اليوم الثاني بدأت اشعر بالمسؤولية ، وايضاً بضرورة ترتيب « شيء » يليق بنا . وأول مـا خطر لي من الخطط الجهنمية ، المبادرة الى صنـــع لحيتين تماماً كلحية صديقي مونكادا ؛ واستعنت بكالمي على استخدام شابين عـلى شيء من الذكاء والفهم لتنفيذ خطتنا ؛ وكتمنا السر حتى عشية ١٤ تموز .

ومع غياب الشمس بدأت باريس تتلألأ بأنوار العيـد ، وخرج الناس ـ جميـــع الناس من بيوتهم الى النوادي والساحات العمومية يضجُّون ويرقصون في حلقات صاخبة مرحة على انغام الموسيقى الصدّاحة المنطلقة من هنا وهناك ، جماعية مؤتلفة ، او رومنطيقية منفردة ، كأن البهجة عصفت بجميع الناس على السواء .

Twitter: @abdulllah1994

بدأ القلق يساورني ، وقد ابطأ الرفاق في الحضور . لم تجئ سوسان بعد ولا ليًّا . ولم يجئ مونكادا ! ودون هؤلاء يفشل مشروعنا ، على قول ليًّا ! وتثاءب جبران الى يساري فدبّ في قلبي الخوف من تراجعه عن عزمه ورحت استنبط النكات لأؤنسه وأسليه ريثما ينضم الينا باقي الزمرة ! فقلت :

– في سنة ١٧١٧ قدم باريس شاب في الثالثة والعشرين من عمره اسمه « اروّيه » – وصف قدومه بُعَيد وفاة الملك لويس الرابع عشر . ولما كان خلفه لويس الخامس عشر ما يزال طفلًا ، فقد انتقلت مهام الملك الى وصيه وهو لا همّ له سوى البذخ واللهو والانصراف الى ملذاته . ولهذا فقد عمّت في عهده الفوضى وأُبيحت المحرّمات وساد الفساد الخلقي في الأوساط الاجتماعية كلها .

اثار هذا الوضع الشاذ المتطرّف اهتمام الشاب « اروّيه » وهو الشديد الاعتداد بنفسه ، البعيد الثقة بها ، فأشار على الوصي المبتذل ، من باب الاقتصاد ، ان يبيع نصف الخيول المطهّمة التي كانت تملأ الياخورات الملكية . وزاد اروّيه ان اقترح بأن يسرّح الوصي ... كل الحمير الذين يملأون البلاط الملكي ! وتناقلت الناس باعجاب هذا القول الجريء حتى انهم امسوا يعزون الى اروّيه كل قول مشابـــه وكل نكتة جارحة ، وقدح لاذع . ودارت عـــلى الألسن اناشيد ذم

Twitter: @abdulllah1994

بالوصي ، فثار غيظه وبدا له ان اروّيه لا سواه ناظم هذه الأناشيد ، فزجّه في سجن الباستيل حيث بقي احـــد عشر شهراً ، اتخذ خلالها لنفسه اسم « ڤولتير » ونظم ملحمة عن حياة الملك هنري الرابع ، طالعها الوصي باعجاب ، وتحقق بعد ذلك ان اروّيه بريء مما نسب اليه فاطلق سراحه وعين له مرتباً مقطوعاً للتعويض عليه ، فكتب له ڤولتير قائلًا :

ـ شكراً لك على الاهتمام بتأمين غذائي وكسوتي ، غير انني ارجوك ، من الآن فصاعداً ، ان تترك لي امر الاهتمام بسكني ...

ضحك جبران ملء فمه وعلق قائلًا : ڤولتير حقيقة خفيف الظل !

في هذه اللحظة دخل مونكادا ، انما برفقة زوجته ، وهذا يعاكس خطتنا ! ... وتبعتهما سوسان وليًّا ووالدتهما مـــع كالمي ... وهذا ايضاً لم يكن في الحسبان ! لكن مونكادا لحسن الحظ ، انتقى طاولة وجلس يتصفح جرائده ، واكملت السيدة طريقها . وانتظم كل من سوسان وليًّا والأُم وكالمي حول طاولة ، وبدأ الفصل الأول .

ها هو « مونكادا ثاني » يدخل من جهـــة اليمين ! و « مونكادا ثالث » من جهة اليسار ! ويجلسان بقرب « مونكادا الأول » مقلدين حركاته وسكناته ، مما لفت الانتباه بشكل

Twitter: @abdulllah1994

فاضح وأثار موجة من الضحك الشديد . الكل اسند خواصره من كثرة الضحك إلاّ جبران فقد تنبّه باحساسه المرهف الى حراجة الموقف وهمس في اذني :

ـ اخشى يا يوسف ان يحصل شر .

وكلمح البصر انتقل حسّ جبران إليّ وتراءت لي خطورة الموقف ، ورأيت كيف كان صديقي « مونكادا الحقيقي » يصفرّ لونه وينتفض ذقنه من شدة الغيظ ، ويبحث في جيبه عن شيء ! فهببت واقفاً وبلحظة كنت الى قربه ممسكاً بذراعه ، ادعوه بالايطاليه للخروج من المقهى .

وكرَجُلٍ آليّ نهض واقفاً والشرَر يتطاير من عينيه ، ومشى معي صامتاً محدّقاً باللاشيء ، ولما ابتعدنا عن الجمهور سمعته يتمتم بين زفراته المختنقة :

ـ آه .. لو عرفت من هو اللئيم الخبيث صاحب هذه المهزلة لفككت رقبته !

فاجبته تحت عبءٍ ثقيل من وخز الضمير : لا شك انه ثمة يهودي نجس !

ومضي يكرر تهديداته وهو يصرّ اسنانه بغضب : الويل له اذا وقع في يدي ، لامزّقنّه شر تمزيق !

Twitter: @abdulllah1994

وكدت اختنق ... ولاحظ مونكادا شدة تأثري وظن « الآدمي » انني شاعر معه ، فراح بدوره يهوّن عليّ ، الى ان وصلنا الى محاذاة مقهى « الليلا » حيث الجماهير في ذروة فورانها وزهوها بالعيد ، فالتقينا بعض الايطاليين من معارف مونكادا فتركته معهم واعتذرت .

وبخطىً ثقيلة وئيـــدة ورأس خفيض رجعت اعقابي الى مقهى الدوم تصطرع فيَّ عوامل متضاربة ، يغلب عليها الحزن والندم ولسان حالي يردد : هي آخر مرة ... لن اعيدها ما حييت !

اجفلني صوت مارتين وسؤالها الملهوف : ماذا بك يا صديقي ، هل انت مريض ؟ هل تشعر بأي ألم ؟ والتفت اليهـا فاذا بها تمسح دموعها :

ـ وانتِ ما بك يا مارتين حزينة باكية ؟

ـ لا ادري ما بي . الناس في افراحهم يرقصون ويغنون ، إلاَّ الدكتور فانه لا يرقص ولا يدعني ارقص ! انه هناك جالس مع صاحبك ذي الشعر الأسود الطويل ، يتحادثان... بأشياء مخجلة ، وعبثاً حاولت ان اصمّ اذني كي لا اسمع . حتى انني كدت انفجر ... فهربت .

ـ تعالي معي . المسألة بسيطة . لا شك ان هناك سوء مفهومية .

Twitter: @abdulllah1994

ومن بين الجماهير الهازجة الصاخبة لمحت جبران يصغي الى الدكتور كسپار يتحدث بحماس . ولاحظت ان ليًّا جالسة وحدها مسندة رأسها بوجوم كما في مأتم ! وجميع الناس يرقصون حتى الوالدة !

واقتربت منهم فلم يعرني الدكتور ادنى انتباه ، ورمقني جبران بنظرة كلها سأم ، وتناهى الى سمعي بعض عبارات متقطعة ، واخيراً سؤال موجّه من الدكتور الى جبران : « هل تعلم ايها السيد جبران كيف تتناسل الحيوانات ؟ » ثم مضى يسمي الأشياء باسمائها مما حمل مارتين ثانية على الاشمئزاز والتظاهر بسدّ الاذنين ، فما كان مني إلاّ ان رفعتُ قبضتي فوق رأس الدكتور وهدّدته قائلًا :

— هل تخرس أو ...

والتفت الى ليًّا فاذا بها قد تنبّهت الى حركتي وبرقت عيناها واومأت إليّ بأن اضرب ! وشجّعتها مارتين متوسلة اليّ بأن اسكته . وخاف جبران ان اسمع كلام الفتاتين !

واخذ صديقي كسپار كلامي بعين الجدّ فهبّ واقفاً وهو يقول :

— من يهمّز بالضرب لا يضرب ! سأعلّمك !

ورفع يده في وجهي فامسكتها بشدة . ولمحت احد

Twitter: @abdulllah1994

رجال الأمن العام يمرّ بنا مـــع رفيقه وهو يفتل شاربيه مبتسماً لنا ، فاهماً ان المسألة مسألة ضحك و « ولدنة » فقط .

ولما انتهى المشهد مع الدكتور غمزت جبران مشيراً الى انه جـاء دوره ، فنهض على الأصول وتقدم نحو ليّا التي سارعت الى ملاقاته ، فأمسك بيدها ... وأمسكت أنا بيد مارتين ، وانخرطنا في حلبة الرقص ، تاركين الدكتور يتفرج علينا ... من بعيد ... وحده !

Twitter: @abdulllah1994

الريحاني في باريس

في ذلك الصيف وصل امين الريحاني إلى باريس قادماً من لبنان ونزل في حي التجارة قرب المحطة الشمالية ، وجاء يزورنا أنا وجبران في الحي اللاتيني — حي الفن والأدب — فوجدنا منهمكين في رسم « المحمولة على اذرع الملائكة » ، فصار يمزح مع جبران ، بالعربية حيناً وبالانكليزية حيناً آخر ، ويختلس النظرات الى جسد روزينا العاري ، مستلقياً فوق الطاولة . وكأن روزينا أحسّت بوقع نظراته فقامت تلملم ثيابها وتلبسها مسرعة متمتمة بالإيطالية :

— هذا الرجل ليس فناناً ، واراني خجلة في حضرته !

وعبثاً حاول جبران وحاولت أنا اقناعها بأن الزائر هو صديق لنا اديب « وفرخ فيلسوف » ، لكنها لم تقتنع ، وانصرفت بعد ان اتفقنا على موعد آخر .

استأجر جبران عربة يجرّها حصان وخرجنا نحن الثلاثة الى نزهة في المدينة . مررنا اولاً بقصر « بوربون » ، مجلس النواب ، فما اعرناه سوى لفتة خاطفة لأن السياسة المحلية لا

Twitter: @abdulllah1994

تهمنا . فنحن ننظر الى الكون من عـــل ! عبرنا الجسر الى ساحة « الكونكورد » وابتدأنا نصعد ـ أي ابتدأ الحصان يصعد ـ جاراً العربة في جادة « الشانزليزه » اجمل جادة في العالم دون مبالغة !

كان الريحاني جالساً إلى اليمين وجبران إلى الشمال وأنا في الوسط ، فقال أمين : « آب وابن وروح قدس ! » محتفظاً لنفسه بلقب « الاب » لأنه يكبرنا بسبع سنين ، وجبران « الروح القدس » لأنه صار يرفرف بجناحيه محاولاً الطيران .. وأنا « الابن » لتكملة الثالوث ! وابتدأ « الاب » « والروح القدس » حالاً يصلحان ما فسد في الكون ، حسب رأيها ، حيناً بالعربية وحيناً بالانكليزية ، وأنا اعكر عليهما قائلاً :

ـ انظرا يا اخويَّ الى اليمين ما اجمل هذه الطريق ، وهذه القصور ... هذا هو قوس النصر ... فليحيَ الامبراطور !

وعلى رجرجة العربة ومن وراء كتفي قال جبران :

ـ اخونا يوسف راضٍ عن الكون كما هو ! فغمرني امين في تحبب وقال :

ـ هذا هو ابني الحبيب ... لما حرمني الكهّان في لبنان وهجرني الاخوان ، جاء الى الفريكه يزورني ويتفقد احوالي فسررت به أيما سرور !

Twitter: @abdulllah1994

وصلنا إلى غابة « بولونيا » وراحت العربـــة تدور بنا وتدور في جميع انحائها حتى تعب الحصان وتململ الحوذي فدفع له جبران الاجرة وصرفه .

وجلسنا نتناول طعام الغداء بدعوة من الريحـــاني ، في مطعم هادئ على ضفة البحيرة ... ولم ننس ان « قليلًا من الخمر يفرح قلب الانسان ! » وعلى مسمع طنيور البط العائمة بدلال على المياه ، صبّ الريحاني وجبران ، ببعض القساوة ، جام غضبهما على رؤوس مستغلي الاديان ، وعـــلى الاديان بوجه عام ، على غرار ما فعل « ڤولتير وديدرو » ورفاقهما قبل ١٥٠ سنة ... في باريس وربما في المكان ذاته !

وأتساءل اليوم بحزن ، بعد ٤٧ سنة : أين جبران ؟ وأين أمين ؟ وعلى حد قول ڤولتير « وهذا الكون باقٍ كما كان .. وكما سيبقى دائماً » .

عند المساء آثرنا العودة ، مشياً على الاقدام . وفي « الجادة الجميلة بين الجادات » اسرّ امين في اذني : « ما قولك بسهرة في المولان روج ؟ » اجبته : موافق اذا كانت هذه رغبتك. وبـــدا جبران تعباً فاوصلناه إلى محله وتوجهنا الى حي « مونمارتر » لمشاهدة أعجب مسرح بين مسارح باريس الليلية .

وسألني امين في الطريق ان كنت أكثر من التردّد الى هذه النوادي ، فأخبرته كيف اني زرتها مرة واحـدة من

Twitter: @abdulllah1994

باب التعرُّف الى الشيء ، ثم بين حين وآخر نزولاً عند رغبة صديق غريب عن باريس ، وعلى حسابه !

فالتفت إليّ وسألني :

ـ وصديقنا جبران ، ألم يطلب منك مرافقته اليها ؟

ـ كلا نحن نذهب لمشاهدة المسارح الكبيرة ، عندما تتوفر لدينا اوراق دعوة !

... وجلست أنا وأمين ، بين الجالسين ، على مقاعد مريحة في صدر القاعة ، وامامنا على المسرح « طوَفان » من الصبايا شبه العاريات ... رؤوس تتلوى ... وأعين تشعّ .. وضفائر مجوهرة وثغور ملوّنة وصدور تتماوج وترقص .. وبطون مزدانة بالحلي تستجلب الانظار ، وسيقان تنفسح عن بعضها وتنضم لترتفع فوق الرؤوس .. واذرع تتلاعب كالحيّات .. واصوات غناء وضحك ، وضجيج آلات موسيقية غريبة صاخبة ، ودخان التبغ يصّاعد كثيفاً عابقاً ثم يعود يرسب في الأنف والحلق والصدر فيضيق النفس !..

فالتفتُ الى أمين قائلاً :

ـ هذه هي « النوادي الليلية » ، فهل انت مسرور ايها الاب الازلي ؟

وهكذا انتهى الفصل الاول .. وتموّجت القاعة بالجماهير واختلط الحابل بالنابل ، والنساء بالرجال ، يقدنهم الى « بار »

Twitter: @abdulllah1994

المشروبات حيث تطير الفلوس من الجيوب ! وأنا والريحاني جالسان مثل الاصنام لا نقول شيئاً ولا نفكر في شيء ـ غريبان في ذلك الجوّ الغريب . وفجأة شعرت بيد تربت على كتفي واخرى على كتف امين وسمعت صوتاً عذباً يقول لنا :

ـ هل انتم من القصدير ايها السادة أم انكم مسمَّرون على المقعد ؟

ونفض الريحاني ذراعه من الألم العصبي ، وتفرّست أنا في وجه الصبية مستفهماً ، فقالت :

ـ أنا مرغريت ، رفيقة روزينا !

ـ ومن يمكنه معرفتك في هذا الوجـــه « الساخر » ؟ وهذا اللباس الذي ليس هو بلباس ؟ ما تفعلين هنا ؟

ولعلّ لهجتي كانت قاسية ، لأن مرغريت ضحكت ضحكة غير طبيعية وأجابت :

ـ انت ماذا تفعل هنا مع هذا « الذات » ؟ وحدّقت في وجه أمين وحدّق امين في وجهها . وسألتها مستفهماً :

ـ وهل روزينا تأتي ايضاً إلى هنا ؟

ـ كلا ، اخوتها لا يسمحون لها . هي عندها اهل يغارون عليها ، اما أنا فليس من يسأل عني .

وراحت تضحك وتبكي في آن واحد وتمسح دموعهـــا

Twitter: @abdulllah1994

بلطف لئلا يزول الكحل وباقي الألوان واخيراً قالت :

ـ أنا لا ادعوكم إلى البار .. ذلك يكلفكم مالاً كثيراً هنا مغارة اللصوص ايها السادة !

لكن امين انتخى وأخرج من جيبه نصف ليرة ذهبية ـ ثروة في تلك الأيام ـ ووضعها في كف مرغريت ، وأنا منذهل لا ادري ما الذي دفعه الى هذا الكرم الحاتمي ! فما كان من الحسناء إلاَّ ان غمرته بذراعيها وقبلته على جبينه وتوارت بين الجماهير تاركة فوق منتقى حاجبيه رسم شفتيها الحمراوين .

ـ « صحتَين يا امين ... صحتين » ـ رحت اردده في اذن امين وأنا امسح الحمرة بطرف محرمتي وامين يمازحني بلطف :

ـ لا تمسحها يا يوسف ... ثمنها نصف دهباية !

وأُعطيت الاشارة لابتداء الفصل الثاني ، وكنا قد شبعنا من مشاهدة طرفان النساء شبه العاريات ، ومن استنشاق الدخان ، وتضايق امين واشتد في ذراعه الألم العصبي .. فانسحبنا في انتظام ورافقته الى المنزل ، ففركت له كتفه كما كانت تفعل « أم امين » في الفريكة ... وتواعدنا على زيارة متحف اللوفر في الغد ...

Twitter: @abdulllah1994

زيارة اللوفر مع الريحاني

في سنة ١٩١٠ ، قلما كانت تمرّ بباريس شخصية شرقية ؛ فاذا صدف ان مرت واجتمعنا نحن بها ، كان جبران يسألني : « هل فحصت الذات الكريمة ؟ هل سألته اذا كان زار متحف اللوفر ؟ » ذلك ان الجواب على هذا السؤال ، كان على الفور ، يلقي ضوءاً على ما نريد معرفته ، فنصنّف كل انسان حسب جوابه ... وهذه نماذج من الأجوبة سمعتها باذنيّ من افواه شخصيات لها مقامها في بلادها وفي الدنيا :

ـ « متحف اللوفر ؟ اظنني زرته ، انما لست على ثقة ! » (كذاب)

ـ « نعم زرته فقط لأقول اني زرته ، لم اجد فيه غير « انتيكا » ما بتحرز ! (حمار)

ـ « متحف الا.. لفر ؟ نعم بالطبع ... قضيت فيه سهرة لطيفة اشاهد الرقص ! (مجذوب)

ـ « بالطبع زرته ... واشتريت منه كراڤاتات ومحارم » ظناً منه انه مخزن اللوفر .. (غشيم)

Twitter: @abdulllah1994

... إلى آخر ما هنالك من اجوبة ، كلها تدعو على الضحك والحزن معاً .

ـ كان هذا القصر يا امين ، مقر ملوك فرنسا . شاهد عظمة لويس الرابع عشر ، وبعد « الثورة » تحوّل الى متحف . حدِّق بنوافذه الواسعة المطلة على السين ، وعلى الجنائن الوارفة المعطرة بالأزهار ... انظر كيف يتهادى منها النور راقصاً حول الروائع والتحف ! « نحن في باريس ! » على حد قول جبران ! وفي هذه القاعات العديدة ، تُعرَض بفن وذوق ومعرفة ، شواهد تمدُّن الشعوب وبدائع فنونها ...

ومضيت اشرح :

ـ أَعِرْني سمعك ! هذه بعض اثار مصر وسومر وبابل واشور والفرس واليونان والرومان ، وهذه روائع النهضة الفنية ... هذه اثار الفنون ... وهذه تماثيل الآلهة وصور العبوديات ... هذا تمثال « زيوس » الـه الالهة ! وهذا تمثال ربة الانتصار وهذه صورة « مونّاليزا جوكوندا » .

وهكذا بقينا نتنقل من قاعة الى قاعة ومن جناح الى جناح ثلاث ساعات كاملة ، لا أنا تعبت من الشرح ولا امين ملَّ الاصغاء .

Twitter: @abdulllah1994

من عـــادة الذين لم يمارسوا الرسم ولم يتعمقوا في فهم الفنون الجميلة الاَّ يميزوا بين موضوع التحفـــة الفنية وبين فصاحة أو ركاكة التعبير عنها – انهم بالاختصار يعجزون عن فهمها حق الفهم . فان كانت الصورة او التمثال مثلاً لأمرأة جميلة حكموا عليهـا حالاً بالجودة والابداع ، سواء كانت متقنة الصنعة أو غير متقنة . اعني ان مقياس النقد عندهم لا يعتمد على اسس واحكام .

هكذا كانت حالة امين الريحاني عندما زرنا متحف اللوفر سوية صيف ١٩١٠ لكنه كان يسأل ويجتهد ليفهم قيمة التحف الفنيـــة ، ويعلّق عليها احياناً بملاحظات فلسفية خاصة لا تخلو من العمق . فقد قال لي مثلاً ونحن امـــام التماثيل الآشورية :

– من يمعن النظر في هـذه التماثيل لا يسعه إلاَّ ان يرى من خلالها قساوة قلوبهم ، ويشعر بعدم الاطمئنان الى معاشرتهم ، ومرافقتهم الى صيد الأسود ... وحصار المدن !

« وهذه التماثيل المصرية ؟ » سألته مرة لأرى بماذا يجيب .

– فيها شيء من القداسة والخشوع . هذا الفرعون الواقف وقد قدّم رِجْلاً وأخَّر الثانية ، وهؤلاء الجالسون وايديهم منبسطة على ركبهم ، يبدون لي انهم « اوادم » – اقرب الى ان يكونوا آلهة ... واحباراً .

Twitter: @abdulllah1994

ـ وهذه التماثيل اليونانية ، ماذا توحي اليك يا امين ؟

ـ الجمال . الشعر . الحب ...

ـ عافاك ... فهمت القصة بسهولة .. سأسلمك « الشهادة ». وهذه الست الواقفة هناك ؟

هذه يا يوسف كأنها من بلادنا !

ودنا منها يقرأ ما كتب تحتها على القاعدة : « الامبراطورة جوليا دمنه » حوالي سنة ٢٠٠ م .

ـ انتَ لست مخطئاً يا امين . جوليا هذه بنت البلاد ـ شاهدت النور تحت سماء سوريا في مدينة حمص على شاطئ العاصي ، وتزوجت القائد الروماني لجيوش الشرق « سبتيموس ساڤاريوس » وبذكائها وجمالها ومالها دفعت بـــه الى عرش الامبراطورية ، وارتقت معه الى « البلاتينو » قصر القياصرة في روما . فكانت ، بما لها من ثقة بنفسها ، كأنها داخلة الى بيتها . وجمعت حولها الأدباء والعلماء والفلاسفة ، فبهرت نساء روما ورجالها ...

وتأثر امين مما سمع وقال وهو ينفض ذراعـــه من الألم العصبي :

ـ أسفي لها ، واقفة الآن على هذه القاعدة في هذه القاعة الباردة الى جانب نهر السين ، وفي بلاد غريبة ، عوضاً عن ان ترفَع في ساحة حمص !

Twitter: @abdulllah1994

ـ وهل في حمص ساحة ، وهل مَنْ سمع باسم جوليا... في حمص ؟

ومضيت في الشرح :

ـ ... على هـذا الحجر الأسود « شرائع حمورابي » ـ جِدَّة جميع الشرائع ، حتى شرائع موسى . وعلى هـذا الضريح المصري الشكل ضريح ملك صيدا « اشموناذار » ـ اطول كتابة فينيقية . وهذا الحجر المعلَّق على الحائط في زاوية القاعة ، تقول الكتابة الى جانبه ، غطاء قبر امرئ القيس ، ملك العرب !

وعبثاً حاولنا قراءة الكتابة المحفورة على الحجر ، ولما يئسنا ، راح امين ينشد بتأثر وحزن :

ـ « أيا جارتا ... إنّا غريبان ههنا ! »

*

بعد انتهاء زيارة الريحاني الى باريس اصطحبه جبران الى لندن حيث مكثا شهراً كاملًا وكتبا لي من هناك كتاباً يدلّ على حالة نفسية مرحة ممتازة . ذلك انهما كانا ما يزالان في اول الطريق ولم يرزحا بعد تحت عبء الفلسفة ، وضيق الصدر ، و « الحَرَد » المزمن !

Twitter: @abdulllah1994

لم يزد الكتاب على العشرة اسطر . بدأ جبران السطر الأول وكتب امين السطر الثاني ثم جبران السطر الثالث وامين الرابع ... وهكذا كلها مزح لطيف يزيل الهم عن القلب .

واكمل الريحاني طريقه الى نيويورك وعاد جبران الى باريس .

*

بعد ثلاثين حولاً ، أي في ربيع ١٩٤٠ ، كنت وصديقي امين جالسين على شرفة منزله في الفريكه : امامنا الوادي وعن يميننا الجبال المتعانقة تكلّلها جبهة صنين الناصعة البياض . وراح امين يدخن الغليوم ويستعرض مراحل حياته ، ولم يكن يفعل ذلك الا فيما ندر . ذكر رحلاته الى البلدان العربية . تحدث عن الملك حسين ، والامام يحيى ، وابن السعود وفيصل ، ثم عن مستقبل العرب ، وقد كان امين يحب الشعوب العربية ويتمنى لها كل الخير ، لكنه في جلسته تلك كان يبدو متشائماً . واخيراً تعرّض لبعض الخلان في لبنان ، فكان قاسياً في النقد والحكم اكثر مما عهدته :

ـ « فلان » هو الكبرياء متربعة على الكرسي ... « فلان » هو الحمار لابساً الارجوان ... و « فلان قزم مسخّر للخرافات والاباطيل ... و

ولكي اخفف من حدة تشاؤمه قاطعته مازحاً :

Twitter: @abdulllah1994

ـ و « فلانة ؟ » و « فلانة ؟ »

ـ على الرأس والعين ... الاديبات عندنا يا يوسف يمكن عدُّهن على اصابع اليد الواحدة ... ويبقى فراغ !

وعاد ينفض ذراعه من الألم العصبي . فقلت له منبهاً اياه ربما للمرة المئة :

ـ اقلع عن التدخين يا امين ، انت تعلم كم يضرك التبغ ! وثق ان هذا الكون سيبقى على علاَّته ولن تصلحه اقوالك وكتاباتك في كثـــير أو قليل ، وعلينا الاهتمام بشؤوننا الخاصة فقط ...

فيجيب غير مقتنع :

ـ بعد بكّير يا يوسف ..

وجئنا على ذكر جبران ، وانه غنم ارباحاً طائلة من اشغاله الأدبية والفنية . فقلت له : كان يحسن عمل الحسابات .

فاجاب معارضاً : بل انه وُفّق في اختيار المواضيع الـــتي تلقى رواجاً ، وفي التعرّف الى الناشرين ، وهكذا كسب جولاته الأخيرة .

واستوضحته عن طبيعة المواضيع التي تهـــمّ القارئ « الانكلوسكسوني » فاجاب :

Twitter: @abdulllah1994

ـ الرأي العام في حالة من الفوضى ، لا سيما بعد انتشار السينما والقصص البوليسية ، وشبه التاريخية ، والفلسفية الرخيصة والمغامرات ـ كل هذه المواضيع عليها اقبال ، ولكن الاعتماد في الدرجة الاولى على اعلانات الناشرين ... و « الحظ » ايضاً له ما له يا يوسف !

وعلى سبيل التسلية اطلعته على موضوع جال في فكري من زمن طويل ، فاصغى بكل اهتمام وكأن الفكرة راقت له فقال هازاً رأسه :

ـ رتّب المواد ، وسأذهب لعندك الى عوره في الصيف القادم ونجلس تحت السنديانة . وربما وضعت قصتك بالانكليزية ، وفي زيارتي القادمة الى الولايات المتحدة أتصل بالناشرين ... ليس من العدل ان نبقى معدَمين قانعين بالاسم فقط ، انت فنان وأنا فيلسوف !

وساد بيننا الصمت ، واسترسل كل منا في افكاره الخاصة يسرّحها حرّة طليقة في اطار من الاحلام العذاب ، وقد شلحت ظلال المساء على حنايا وادي الفريكه الواناً نارية ورمادية موّاجة . ومع الغروب ، يلملم الضياء الوردي الناعس اذياله ، رويداً رويداً ، عن ذرى صنين ، في صورة لا اروع ولا ابهى ! وعلى مرمى حجر بيتٌ صغير وسط حديقة سكنته ، قبل سنتين ، الاديبة العزيزة « مي » .

Twitter: @abdulllah1994

ونهض امين على مهل ودخل غرفة نومه ، ثم عاد بعد حين ، حاملاً معه بعض ورقات كتب عليها « وصيته » لتقرأ يوم مأتمه ... وراح يتلوها على مسمعي :

« لم تكن حياتي حياة القديسين والاولياء ... اوصي اليكم اخواني في الانسانية ... الخ ... »

ولما انتهى من تلاوة وصيته قلت له مازحاً :

ـ انت تفكر في جدّ بترك هذه الدنيا قبل المئة سنة ، وقبل ان تربح الكثير من الدولارات ؟ هذا غير معقول ! ثم هذا المقطع الأخير من حياتك الخصوصية ، يا اخا العرب ، لا دخل للناس فيه . اذا كنا لم نوفّق في انتخاب رفيقات حياتنا ، فالصمت اولى بنا .

واقتنع امين بصحة نظريتي الاخيرة ، فشطب بالقلم الازرق على المقطع المذكور ، وعدنا الى التحدث عن ذكرياتنا ومنها زيارته الى باريس : النزهة في غابة بولونيا والسهرة في المولان روج ، وزيارة متحف اللوفر . واخيراً قال امين :

ـ تلك الزيارة يا يوسف كانت نقطة انطلاق لتفهُّمي الفنون الجميلة . وقد اتسعت بعد ذلك آفاق معرفتي ، وسعيت الى درس ومراجعة المؤلفات ، حتى انني كتبت شيئاً عن الفنون ، وتزوجت من فنانة ، ولدى كل ازمة عاطفية

Twitter: @abdulllah1994

كنت اتذكر تلك الحسناء الباريسية في « المولان روج » التي اهديتها نصف ذهباية ... وتلك الصبية في محترف جبران التي لم ترض ان احدّق اليها عارية ... أتذكر ذلك يا يوسف ؟

اجبته على الفور :

ـ « اذكر ذلك ولن انساه ! »

في ذلك الصيف ، وقبل ان يقدّر لحلمنا الجميل ان يعرف النور ، توفي صديقي امين الريحاني في الفريكه . وهو يرقد الآن في ضريح العائلة ، بظل شجرتي سنديان متعانقتين ... ازوره مرة كل سنة لأتأمل في مصير الانسان ، واذرف دمعة حرّى !

Twitter: @abdulllah1994

زيارة ايزدوره دنكن

بعد سفر الريحاني الى نيويورك عاد جبران الى باريس وعدنا الى حياتنا السابقـــة : نرسم ونتناقش في شؤون الفن وشجونه ، ونتنزه على ضفاف « السين » وعندما كان يتيسر لنا دعوات ، نسارع الى مسرح « الشاتليه » لمشاهـــدة الراقصة الاميركية الشهيرة « ازيدوره دنكن » ... ونرتب في محلي ، من حين الى آخر ، حفلة موسيقية راقصة ، تعزف فيهـــا اولغا وترقص مرغريت وروزينا على ضوء الشموع الناعسة ، ونرقب أنا وجبران ونحتسي الشاي ... ونحلم !

كان جبران في تلك الاثناء يكثر من الانصراف الى الكتابة واحياناً يقرأ لي ما يكتب . امـا أنا فكنت تحت تأثير مطالعة سبعة مجلدات ضخمة عن تاريخ اصول الديانة المسيحية « لرنان » ، وقد عصر فيها دماغه ووفق في اخراج الموضوع بمهارة فائقة اثارت اعجابي فكنت اقول لجبران :

ــ حبذا يا اخي التخصُّص بنوع واحـد من الأدب أو الفن أو العلم . لهجة الأنبياء هذه (أعني لهجته) لا تروق لي ، ولا تلذّ لي السباحـة في الضباب ، ولا يهمني اصلاح

Twitter: @abdulllah1994

الكون في كثير أو قليـــل ... يهمني فقط لو افهم شيئاً واضحاً عن اسرار الكون الغامضة المحيطة بنا .

وكان جبران يجيبني بما يشبه الهزء وهو يرشف القهوة وينفخ دخان السيجارة :

ـ قل لي يايوسف بأي نوع من الفنون أو العلوم ستتخصّص ؟ وهل تحسب ان باستطاعتك فهم شيء واضح عن اسرار هذا الكون الهائل العجيب ؟

وسألته يوماً رأيه في تمثال راقصة كنت اشتغل عليه ، فحدّق طويلًا وتناول التمثال بعيني فنان خبـــير فاحص ثم أجابني :

ـ اهنئك يا يوسف ، ان راقصتك ولا شك من وحي ازيدوره . انت حتما نحاتاً خـــير منك رساماً ... دونك النحت .. تخصص بالنحت !

كان يتكلم ويعالج باصبعه الدلغان ، ماسحاً بعض خطوط الجسد وأنا اداعبه على طريقتي الخاصة :

ـ راح توسخ اصبعك ... والخاتم الجميل على اصبعك !

ثم طلب ان يرى الأصل الذي نُقل التمثال عنه فاخبرته ان الرسم اعجب الآنسة مرغريت وابدت رغبة بالمحافظـــة عليه فاهديتها اياه . فحمق جبران عليّ وقال غاضباً :

Twitter: @abdulllah1994

ـ هكذا انت ... دائماً تبعثر رسومك ولا تعرف كيف تحتفظ بها . انت بحاجة الى وصي !

فأجبته ببرودتي المعتادة : اناتك يا اخي . يظهر ان ازيدوره شاهدت الرسم مع تلميذتها مرغريت فاعجبت به واستفهمت عن الفنان الذي صنعه ... وربما جاءت لزيارتي !

فهزّ جبران كتفه باستخفاف وقال :

ـ اوهام واحلام يا يوسف ، هي لا تتنازل لزيارة اغنى مواطنيها ، اصحاب الملايين . ألم تر بعينك كيف يجنّ الجمهور اذ تخطر ، أو تدور على المسرح بحركاتها الرشيقة المتسقة ؟ وكيف تُنثر بسخاء حولها باقات الزهر ؟

وزاد جبران بعد ان فكر قليلاً :

ـ ومن يعلم فلعلها تتذوق الفن وتقدره قدره . على كل حال هي غنية ومن المحتمل انها تحتقر مواطنيها الأغنياء لأنهم جهلة . في المجتمع الاميركي يقال عنها انها متكبرة . يُرى عند قدميها الادباء والشعراء ، صغاراً ذليلين .

ـ أنا لا يهمني من امرها سوى ان رقصها التوقيعي الرائع قد فتح امام عيني افاقاً جديدة واسعة في الفن والأدب والحياة . كنت اتوهم ، قبل ان رأيتها ترقص فتعبّر بحركاتها وخلجاتها عن مشاعر القلب والنفس ، ان الرقص تقصيف خصور وحركات ولدنة لا طائل تحتها !

Twitter: @abdulllah1994

فقاطعني جبران « بلهجة الانبياء » :

— ليس الرقص البديع هو الذي فتح امام عينيك الافاق ، انه جو باريس حيث تلعب اصابع الالهة ! آه ما اسعدنا هنا ! ما ابعدنا عن عالم البيع والشراء ، وعالم اللاهوت المكفهر ... وعالم السياسة الفاسقة ... لا يا يوسف ! ان الالهة وهبتنا كنوزاً ثمينة علينا ان نصونها من لصوص الظلام .

في صباح اليوم التالي وصلتني هذه الرسالة :

« سيدي العزيز . اذا سمحت ، فسأزورك بضع دقائق برفقة صديقة لي ، صباح الخميس القادم الساعة الحادية عشرة ، لكي نتعرف اليك ونشاهد اشغالك الفنية . مع الشكر سلفاً ، وتفضل واقبل ايها المعلم العزيز تقديري وسلامي... »

ازيدوره دنكن

وفي الموعد المحدَّد جاءت الراقصة الشهيرة برفقة صديقتها فاستقبلتها بثياب الشغل . سألتني : « المعلم ؟ »

— نعم يا سيدتي !

فشهقت عيناها بدهشة ، وتقدمت برشاقة مادّة نحوي يدها الرخيمة :

Twitter: @abdulllah1994

ـ أنا ازيدوره ، وهـــذه صديقتي مس جوهانسن من كوبنهاغن .

واجالت الراقصة نظرها في المكان وقالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ تماماً كما كنت اتهيأه : بساطة ، رسوم ، كتب .. وزهور .

ثم نظرت اليّ وكلمت رفيقتها بلغة لم افهمها . وتابعت بالفرنسية موجهة الكلام اليَّ :

ـ قبل كل شيء قل لي اين هو لبنان ؟ هـــل لديك خريطة ؟

فنشرتُ امامهـــا للحال خريطة صغيرة للقارة الآسيوية واشرت بالقلم الى شرقي البحر الابيض المتوسط . فركزت نظارتيها وراحت تقرأ بصوت عـال : دمشق ، اورشليم ، لبنان . اين هو لبنان ؟ لقد قال لي « دنونشيو » ان لبنان هو موطن ادونيس وانه مظلل بغابات الارز .

قلت لها : هكذا يا سيدتي كانت جبال لبنان في قديم الزمان ايام ادونيس . اما الآن فلم يبق من غابات الارز الظليلة سوى واحـة صغيرة « مقدَّسة » في اعالي الجبال .

فعلقت مس جوهانسن ضاحكة بلهجة طفولية ساذجة :

Twitter: @abdulllah1994

ـ وأنا الغبية كنت اتصوّر لبنان جبلًا شامخاً وعلى قمته ارزة ! ورنت اليّ بعينين في زرقة السماء ، رنوة طويلة فيها معنى مبهم حلو .

وسألتني الزائرة الكريمة وهي تتأمل تمثال الراقصة ، وأنا اتأمل بعض شعرات بيضاء غزت فوديها ، وهالة بنفسجية حوّطت عينيها :

ـ قل لي هل شاهدت ازيدوره ترقص اكثر من مرة ؟

ـ مرات ...

فاردفت وهي تتأمل ذاتها في التمثال دون ان تنظر اليّ :

ـ وهل تعرفها بهذا اللباس المدني ؟ وهل تحبها دائماً ؟

وبدون ان تنتظر الجواب راحت تقول :

ـ ارجوك ان تريني ما عندك من الرسوم . لقد شاهدت مع احدى تلميذاتي رسماً لك اعجبني كثيراً وتولدت فيّ الرغبة لمشاهدة غيره من رسومك ... ولمشاهدتك انت !

وانبرت تقلب المجموعة التي وضعتها بين يديها واختارت منها رسمين ، كما اختارت مس جوهانسن رسماً واحداً . وقالت ازيدوره :

ـ هل انت بغنى عن هذه الرسوم ؟ توقيعك لطفاً !

Twitter: @abdulllah1994

واخرجت كل واحدة من محفظتها دفتر الشكات وقلم الحبر وكتبت بعض ارقام ، واخيراً قالت ازيدوره :

ـ واسمح لنا ان نقدم لك هدية صغيرة . ليس هـذا هو الثمن . الفن لا ثمن له ـ يا معلم !

وبرفق تركت الشاكين على اطاولة وهي تقول بصوت خاشع يشبه همس صلاة :

ـ هدية صغيرة وتذكار من ازيدوره ـ عربون التقدير والمودة !

واعطتني يدها مودعة وهي تبتسم بلطف فقبلتها بكل احترام ورافقتها الى الخارج .

ولما همت السيارة في الانطلاق رفعت ازيدوره انامل الى فمها تودعني مبتسمة وتطيّر لي قبلة من بعيد ، ومثلها فعلت مس جوهانسن !

... وعدت الى محترفي كئيباً احس بالفراغ . لكنني لم أَلبث ان تذكرت الشاكين ! فذا كل واحد بمئة دولار . والدولار يومذاك يساوي خمسة فرنكات وعشرين سانتيما .. اذكر ذلك جيداً ، لأنني بقيت ، أَنا وجبران ، بعض الوقت نعمل حسابات : نطرح ونضرب ونقسم !

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

سفر جبران

اضفتُ المئتي دولار الى ما كنت قد ادخرته من نقود للقيام برحلة كنت قد تعوّدتها في شهر آب من كل صيف فزرت بعض مدن المانيا والنمسا ووصلت الى اسطنبول فاذا في انتظاري رسالة من جبران يقول فيها :

« ... انت بالطبع مسرور في مدينة القياصرة والسلاطين ، الواقفة كعلامة السؤال بين الشرق والغرب . وكيفما تحولت الامور فأنت ستعود من لحد السعادة مملوءاً باشباح الاجيال الغابرة وخيالات الامم الحاضرة ...

« في الاستانة اشياء كثيرة تستدعي الدرس وتستلزم التأمل ، اخصُّ منها الكنائس والجوامع القديمة حيث النقوش البيزنطية والرسوم التي تقدمت عهد النهضة الايطالية .. فاياك ان تترك الاستانة قبل ان تدرسها جيداً . ولا شك بأن المتحف السلطاني حاوٍ على آثارات يونانية ورومانية نفيسة ، فانظرها واذكرني عندما تقف امام شيء هائل بجماله وجميل بهوله .

« وكيف وجدت السوريين في الاستانة ؟ هل وجدتهم

Twitter: @abdulllah1994

من الأحياء المتحركين أم من الأموات الجامدين ؟ السوري يا يوسف نعجة في بلاده وأسد في الغربة . فان صحّ هـذا الكلام عن سوريي الاستانة فبشر سوريا بفوز مبين .. »

هنا سأمر خطفاً دون التعرض لشيء مما كنت اشاهده من روائع اثناء سفرتي الى الاستانة وسواها . غير انني كنت على اتصال دائم بجبران انقل له بالمراسلة اهم انطباعاتي الفنية مما يضيق المقام عن ذكره . وتابعت السفر الى اثينا فروما ، ثم عدت الى باريس عن طريق فلورنسه وجنيف ، فوجدت جبران منهمكاً في تجهيز بعض لوحاته ليعرضها في معرض الخريف . وكان جبران بادي القلق والاضطراب . فقد تضطره ظروفه الاقتصادية للعودة الى بوسطن ، ويهمُّه كثيراً قبل ذلك ان يكون قد عرض شيئاً في معرض باريس .

قدّم جبران من لوحاته « المحمولة على اذرع الملائكة » ولوحتين اخريين ، قُبلت احداها فقط ... لكن حظها كان احد الممرات الثانوية وليس القاعة الكبرى كما كان يرجو . وفي المساء كشف لي جبران عن هموم قلبه فقال :

ـ لا بد يا يوسف ان يزور رودان المعرض ، وكم أودّ ان اريه شيئاً من شغلي واسمع من فمه كلمة تقدير يكون لها صدى في المجتمع الاميركي . فهو لا يجيء ، كما تعلم ، الا

Twitter: @abdulllah1994

محاطاً برفقة بعض السيدات الاميركيات ، ولا يليق ان تعرض صورتي في الممرّ ... هـــذا غير ممكن !

وانتصب جبران واقفاً وصار يذرع الغرفة بعصبية ...

ـ هوّن عليك يا جبران . المسألة ابسط مما تتصور . لنبصق على دولار ، وأنا الكفيل بأن الحارس ينقل الصورة الى داخل القاعة ...

وهكذا كان !

كنت واقفاً الى الجهة الثانية من القاعـــة عندما مرّ رودان وكأنه نصف اله ! يحفّ بنـــه رفٌ من السيدات المعطرات كسرب من الحوريات بالفساطـــين الطويلة الفضفاضة والاكعاب العاليـة والقبعات الكبيرة المرشوشة بالزهر الملون . ورأيت رودان يقف لحظة امام لوحة جبران ، ويتقدم جبران خطوة نحوه ويمد يده لمصافحته ويتفوه ببضع عبارات لم اسمعها ولا سألته بعدئذ عنها ... ويهزّ رودان رأسه للفنان الناشئ ، ولا يلبث ان يمشي ، مكملاً جولته بين رفّ السيدات المعطرات ...

هكذا اخيراً لاقى جبران المعلم رودان ، هو يومذاك قد جاوز السبعين ، وفي قمة مجده الفني . ابدع تحفـه الفنية الخالدة : عصر البرونز ، مواطني كاليه ، القبلة ، المفكر ، هوغو ، بلزاك وسواها . وكان محاطاً بهالة من الشهرة والغنى

Twitter: @abdulllah1994

والكبرياء ، وجبران لا يزال فتى في السابعة والعشرين ، غريباً عن باريس ، يتكلم الفرنسية بصعوبة ، ويشقّ طريقه الفنية بكدّ وفاقة ... اما اشغاله وكتاباته يومذاك فلم تكن تغلّ عليه شيئاً أو تستجلب الانتباه . فكل ما قيل عن علاقته وتتلمذه على النحات الشهير ، وشهادة الامتياز في كلية الفنون الافرنسية وعضوية الشرف في جمعية المصورين الانكليز ، ليس الا ضرباً من الاباطيل .

كانت حركة التحرير الفني في الجو الباريسي بمستهل القرن العشرين ، قد شارفت النضج ، لكن جبران لم يتأثر بها ولم يُعرها انتباهاً ... كانت مخيلته تضجّ بالفلسفة والتعاليم والرموز .. واشياء مبهمة لم يكن هو نفسه قد استوضح معانيها ووعاها بعد . فقد طغى « الاديب » فيه على « الفنان » وبقي الرسم بين اصابعه حائراً ، يتلمس طريقه بجهد الى اثبات الذات ... وهكذا لم تكن فائدته الفنية من وجوده بباريس بذات اهمية كبيرة . وقد غادر فرنسا التي احبها وشغف بها ـ غادرها في اواخر الخريف ، مرغماً ، والدمعة في عينيه ...

رافقته وحدي الى محطة قطار « ليون » ، وعاونته على الجلوس في مكان مريح قرب النافذة وعلى مساواة امتعته في الشبكة فوق المقعد . وجلست بقربه اشغل المحل ، واملأ

Twitter: @abdulllah1994

الدقائق الباقيات بالكلام والتوصيات الاخـــيرة ، حتى اذا اعطيت اشارة سير القطار هبطتُ مسرعاً وتركته يشغل المحلين وحده ويمد رجليه براحة . وليس كالأسفار ما يعلم الانسان ويفتح على العالم عينيه !

لم يقطع جبران اخباره عني ، فقد كانت تصلني منه بين الحين والحين رسائل يحنّ فيها الى باريس ، ومنهـــا هذه الرسالة :

« ١٩/ك٢/١٩١١ بوسطن

« اخي يوسف – سعدا لمن له مرقد عنزة – في باريس ! وهنيئاً لمن يسير عـلى ضفاف نهر السين ، متأملاً بصناديق الكتب العتيقة والرسوم القديمة . أنا في هذه المدينة المملوءة بالاصدقاء والمعارف كمنفيّ الى اقاصي العالم حيث الحيـــاة باردة كالثلج وقتمة كالرمـاد وصامتة كأبي الهول . شقيقتي بقربي والمحبون حولي في كل مكان . والناس يأتون الى منزلي صباحاً مساء ولكني غير مسرور من حياتي يا يوسف.. اشغالي سائرة نحو قمـــة الجبل وافكاري هادئة ، وجسدي يتمتع بكل ما في الصحة من لذة الوجدان ... لكنني لست مغبوطاً يا يوسف ... ونفسي جائعة ظامئـــة الى مأكل ومشرب لا ادري اينهما .. النفس زهرة علوية لا تعيش في

Twitter: @abdulllah1994

الظل . اما الاشواك فتعيش في كل مكان .. الريحاني في مكان قريب من نيويورك وهو تعيس في حياتـــه . كلانا يشكو الى الآخر ما في قلبه ويتوق الى لبنان ويتشبث بمحاسنه .. تلك حياة ابناء الشرق المصابين بـداء الفن . تلك هي حياة ابناء « ايولون » المنفيين الى هـــذا العالم الغريب باعماله ، الجامد بمسيره ، الضاحك ببكائه .. وكيف حالك يا يوسف ؟ هل انت مسرور بين الاشباح البشرية التي تراهـا على جانبي الطريق ؟ وكيف اشغالك وهل هي مثلما تريدها ان تكون ؟ وما هي الرسوم التي صنعتها في غيابي ؟ قـد كتبت لي مدام هاملتون كلاماً حسناً عنك . فابق صديقاً لها فهي لطيفة ، وفوق ذلك فهي واحدة من شهيدات اله الفن الظالم الرحوم المظلم المنير ... واين بلغ بك دانتي ؟ هل انت برفقته في تلك « الهوة » العميقـة وبين تلك المعابر الخطرة ؟ واين بلغت بك « ذات الشعر الذهبي رفيقة روح بوتشللي » . هل انت واقف بقربها امام وجـه الابدية في تلك المسارح البعيدة عن عـــالم المقاييس والكمية ؟ ولديّ سؤالات كثيرة تتراوح بين اعماق الجحيم واعالي السماء . ولكني لا اريد ان اسلمها الى الحبر والورق . اذكر اسمي في قصر اللوفر وامام ربة الانتصار . سلام الى « مونّا ليزا ». سلام الى الارواح المتطايرة حول رأسك .. سلام اليك من اخيك ومحبك ــ جبران » .

Twitter: @abdulllah1994

سفر روزينه

حوالي الساعـــة الواحدة بعد منتصف الليل كنت في الفراش ، على عادتي ، اطالع وأرسم ، واذا بدقة على الباب ، بل ثلاث دقات اعقبتها ثلاث دقات اخرى . هذه دقة الآنسة روزينه ! قلت في نفسي أَمِن المحتمل ان تكون هي الآتية في هذه الساعة ؟

وهببت من فراشي اتعثر على غير هدى وهبطت الدرج إلى الباب ، وفتحته ، فاذا أنا وجهاً لوجه مع روزينه ، وهي صفراء كتمثال من الشمع ، ترتجف حتى اخمص قدميها من فرط الانفعال والبرد ... وتقدّمت ـ كتلة من الأسى والاعياء ـ وترامت على الديوان ، وغطت وجهها بكلتا يديها واجهشت في عاصفة من البكاء الحاد ...

تركتها تبكي وتبّرد غليلها وانصرفت اشعل الغاز لإعداد فنجان قهوة ، هو خـير مهديء لأعصابها المضطربة . وبعد لحظات سألتها وهي تشرب قهوتها عـلى مهل وتحدّق امامها شاردة الذهن :

ـ هيا الآن اخبريني القصة من اولها ...

Twitter: @abdulllah1994

فأجابت بصوت مخنوق وهي ما تزال ترتجف وتعض على شفتها لتحبس دموعها :

ـ طردوني ! ضربوني ! هددوني بالقتل ! ولولا املي بك يا سيدي ، ولولا ثقتي بأنني واجدة عندك الملجأ الأمين لكنت الآن في قعر السين ... آه ليتني لم اجيء إلى باريس !

وعادت الى البكاء ومسح الدموع وعدت أنا إلى تطييب الخاطر ... ثم اخبرتني ان اخوتها بعد ان كانوا اول الأمر يمنعونها من الخروج ليلًا ، ابتدأوا يعاقرون الخمرة ويطلبون منها شيئاً ـ الموت اهون من عاره ـ يطلبون منها ان تبيع نفسها كبنات الليل ! وتضرّعت إليّ قائلة :

ـ رحماك يا سيدي . اشفق عليّ وساعدني في العودة الى بلادي . أنا ليس لي غيرك ... الله يجازيك .

وأكبّت على يدي ، فأخفيتها قبل ان تقبلها .

وعندما رأيتها على هذه الحال هدّأت ثورتها قائلًا : طمني بالك يا عزيزتي ، ستكونين بعد ٤٨ ساعـــة بين اهلك في إنطيكولي !

فصاحت وهي تضحك وتبكي في آن واحدٍ :

ـ أصحيح ما تقول يا سيدي ؟ لم اكن مخطئة اذ اتجهت بآمالي كلها اليك دون سواك !

Twitter: @abdulllah1994

ـ انتِ الآن بحاجة إلى شيء من الراحة لتقوي غداً على السفر . سأناولك الحرام ، التفّي به وتامي ملء جفونك . وان كنت جائعة دونك علبة البسكوت ومجمع المربى .. هناك على الطاولة .

وصعدتُ إلى التخشيبة حيث فراشي ورميت الى روزينه بالحرام ـ الغطاء الوحيد الذي كنت املك ـ فالتفّت به لفوق رأسها ، لأنها بالحق كانت شبه ميتة من البرد والتعب . اما أنا فعمدت إلى كل ما عندي من ثياب واشياء صوفة لبّدتها فوقي ...

وحاولت ان اطالع بصورة طبيعية فلم افهم ثمة كلمة . عندئذ اطفأت النور وحامت في رأسي ذكريات حلوة عن جدل طالما احتدم بيني وبين جبران عن علاقة الرجل بالمرأة ، وطبيعة هذه العلاقة ...

على هذه الذكريات غفوت ، وأفقت مع هلة الفجر ، فنزلت على مهل ، واشعلت آلة الغاز لإعداد القهوة .. وتفقدت روزينه فوجدتها غافية كغفوة الطفل ، وقد اشرأبت من فوق الغطاء خصلة من شعرها الذهبي الذي احبه جبران ، وكأنها تقول : نعم أنا هي روزينه رفيقة روح بوتشللي !

واخيراً تململت وكشفت الغطاء عن رأسها ، وإذ رأتني منهمكاً بالقهوة صبّحتْ ببسمة نيّرة وراحت تسوّي باصابعها شعرها المرسل الجميل ...

Twitter: @abdulllah1994

فتقدمتُ نحوها بفنجان القهوة ومررت بيدي على رأسها وقبلت جبينها متمنياً ان تكون قد ارتاحت عن ذي امس، فأرجعت لي القبلة بكل براءة وأجابت :

ـ ارتحت بالتأكيد .. متى السفر يا سيدي ؟ لقد رأيت في المنام جبال تيڤولي وانطيكولي » .

ـ قطار روما موعده الساعة العاشرة وامامك ثلاث ساعات. هل انت بحاجة الى شيء ؟

فأغمضت عينيها وتلمّست جبينها كمن يستجمع فكره ... ثم اخرجت بهدوء من زندها ، الأساور الفضية الثلاثة وسألت :

ـ هل بالامكان بيعها ؟ أنا بحاجة الى لباس دافئ وحذاء .. حذائي هذا مفتّق تنفذ اليه المياه .. ولباسي خفيف . وأخاف قرصة البرد عبر جبال الألب . وفوق هذا أنا اخجل ان اصل إلى البيت بهذا الثوب المرقّع والحذاء المهترئ !

ـ ارجعي الاساور إلى زندك ، رجوتك روزينه ، ولا تنسي انها هدية ـ تذكار لطيف من صديقنا جبران ـ واطمئني . سنشتري كل ما تحتاجين اليه في طريقنا الى المحطة . وأنا ذاهب الآن لاستحضار شيء للفطور .

فسألتني بحياء ان اعطيها قبل انصرافي ابرة وخيطاً .

ذهبت الى مطعم قريب فوجدت صاحبه وصاحبي « بوشني »

Twitter: @abdulllah1994

بمريوله الابيض يرتب كاسات اللبن في الواجهة ، فبشّ لمرآي وقال :

ـ كل مرة اروّب الحليب افكر بك يا مسيو جوزيف ، فالزبائن يجدون لبن « بوشني » ألذ من لبن البَلغار (محتكري اللبن في ذلك الحين) .. والفضل كله لك لأنك علمتني ترويب اللبن ... بماذا يمكنني ان اخدمك ؟

ـ أنا بحاجة الى شيء للفطور والى بعض الزاد للسفر والى مثني فرنك ، سأرجعها هـذا المساء اذا تسنى لي ذلك . وإلا ففي الاسبوع القادم .

فاجاب الرجل « الآدمي » :

ـ مسيو جوزيف . كل ما في المحل وصاحب المحل ذاته ، تحت امرك !

امضت روزينه بعض الوقت تساوي ثيابها : الفسطان الأخضر .. القميص البيضاء بلا اكمام ، والشال الأحمر ـ هذا كل ما كانت المسكينة تملك من ثياب ، تستر بها اجمل جسم امرأة !

جلستُ في نفس المحل حيث كنت اجلس مـع جبران نسمع الموسيقى ونشاهد الرقص ، وسرحت في الخيـــال :

Twitter: @abdulllah1994

الآنسة اولغا هي الآن في « تومسك » تقول : « لما افكر في باريس تتراءى لخاطري كحلم بعيد ـ بعيد » .

وجبران في بوسطن يصيح : « أنا غير مسرور من حياتي يا يوسف .. ». وكأن افكار روزينه كانت ترافق افكاري فسألتني :

ـ هل لديك اخبار من المسيو جبران ؟

ـ نعم . وهو دائماً يسألني عنك .

ـ ارجوك ، عندما تكتب له ، ان تهديه سلامي وتقول له..

ـ ماذا اقول له ؟

ـ ان روزينه كلما نظرت الى الاساور الفضية تذكرك بالخير .. وانها كادت تبيعها لتشتري حذاء !

ونظرت إليّ نظرة شيطانية ، فهمت منها انها كانت واثقة من اني لن اتركها تفعل ذلك !

سألتها فجأة : روزينه . اصدقيني الخبر . ما رأيك بصديقنا جبران ؟ أنا اعلم انك كنتِ اثناء اسفاري ، تجلسين له ، وانه كان يدعوك احياناً للأكل ...

ـ جبران يا سيدي ، امير ، لطيف ومهذب . لم تبدر لي منه ولا مرة حركة أو كلمة غير لائقة .. لم اكن دائماً افهم كل ما يقول ، انما كنت ، بحدسي ، اشعر ان احاديثه هي

Twitter: @abdulllah1994

فوق مستوى الأحاديث العادية وانها ممتعة وشيّقة .

واردفت بعد تفكير قليل :

ـ كدت مرة اتزاعل مع مرغريت لأنها قالت لي ان جبران ككل الرجال وانه دعاها يوماً للغداء واخبرها انه يحب امرأتين هما بياتريس ومسّالين ...

هنا لم املك من الضحك وقلت لها :

ـ لم يكن جبران يحسن التعبير عن نفسه بالفرنسية . وليست بياتريس ومسّالين هاتان سوى رمزين ..

ـ نعم ! أنا كنت اقول لمرغريت انهما ليستا مثلنا تأكلان وتشربان ، لكنها كانت تضع اصبعها على رأس انفها وتقول : أنا لا افهم بالرموز ... أنا اشم الرائحة !

وانتهت روزينه الى القول :

ـ لكن اعتقد ان مرغريت لم تكن تحسن الشم ! وان جبران كان عن حق اميراً شريفاً مهذباً ..

... وحان الوقت ، فالتفّت روزينه بشالها وحملت زاد السفر تحت إبطها وسرنا الى محطة « ليون » . وفي الطريق اشتريت لها الحذاء والثوب والمعطف . وحزنت لأنني لم

Twitter: @abdulllah1994

اتمكن من قطع تذكرة سفرها الاَّ في الدرجة الثالثة .. ووضعت في جيبها – رغماً عنها – كل ما بقي في جيبي ، وساعدتها على ايجاد محل مريح ممنوع فيه التدخين ، وبجانب سيدة عجوز بثياب الحداد تتكلم الايطالية وهي عائدة من شمالي فرنسا الى روما .. أوصيتها بروزينه فقالت :

– « اوصِها هي بي يا بني ! » وضمتها الى صدرها بتودد .

ودّعتها وهبطت الى الرصيف .. دقيقة وتحرك القطار .. فأطلت روزينه من النافذة تودّع بيد ، وتمسح دموعها باليد الاخرى .

« أخي جبران ... الى هنا بلغت بي ذات الشعر الذهبي رفيقة روح بوتشللي » .

Twitter: @abdulllah1994

فهرست

صفحة

مقدمة ٥
الآنسة اولغا ١٣
المكتبة الفنية ٢٣
مقهى الدوم ٣١
في متحف اللوفر مع جبران ٣٩
حديث اولغا ٤٥
الزوبعة الربيعية ٥٣
اللغة السريانية ٦١
نزهة ليلية ٦٧
مطعم مدام بوده ٧٧
الآنسة مارتين ٨٧
آراء الدكتور كسپار ٩٥
الآنسة روزينه ١٠٧
مرض جبران ١١٩
ما هو الحب ؟ ١٢٧

Twitter: @abdulllah1994

ماذا كانت تريد مني اولغا ؟ ١٣٧
زواج كالمي ١٤٣
الآنسة أليس ١٤٩
الأب لومتر ١٥٩
الدكتور كسپار – مونكادا ١٦٧
١٤ تموز ١٧٣
الريحاني في باريس ١٨٣
زيارة اللوفر مع الريحاني ١٨٩
زيارة ازيدوره دنكن ١٩٩
سفر جبران ٢٠٧
سفر روزينه ٢١٣

Twitter: @abdulllah1994

للمؤلفة

بَوْح — شعر	طبعة اولى	١٩٥٤
ذكرياتي مع جبران	طبعة اولى	١٩٥٧
	طبعة ثانية	١٩٧٩
شوق — شعر	طبعة اولى	١٩٦٢
الطبيب الصغير — قصة للأحداث	طبعة اولى	١٩٦٣
	طبعة ثانية	١٩٧٨
الحِرَف الشعبية في لبنان . . .	طبعة اولى	١٩٦٤
سعيد تقي الدين اطروحة الماجستير	(تحت الطبع)	
سيرة شكري حنا شماس . . .	طبعة اولى	١٩٧١
العنبر رقم ١٢ — مجموعة قصص	طبعة اولى	١٩٧٩
مكتبة الاطفال — سبعة كتيِّبات	طبعة اولى	١٩٥٢
	طبعة ثانية	١٩٦٠
	طبعة ثالثة	١٩٦٦

Twitter: @abdulllah1994

هذه الذكريات رواها للأديبة ادقيك جريديني شيبوب رائد النحت في لبنان يوسف الحويك . انها ذكريات صادقة عن سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ – تلك الحقبة التي عاشها الحويك مع جبران في باريس ، وهما بعد ، من عمرهما ، في الربيع النضير ، قلّما اتى احدهما امراً الا اطلع رفيقه عليه ، او التمعت في خاطره فكرة الا استشاره في امرها .

في هذا الكتاب ، يُكشَف النقاب ، لأول مرة ، عن حقيقة ما فعله جبران في باريس . كيف كان يفكر ويحلم ؟ كيف كانت نظرته الى الحياة ... الى الثورة الفنية ، والى الحب ؟

وقد برعت ريشة الاديبة ادقيك شيبوب في تسجيل تلك الذكريات بأمانة ، وبأسلوبها الشاعري المشرق ...

ستصدر قريباً الترجمة الانكليزية لهذا الكتاب .